

الطريق إلى الدوحة

رواية وفاء وصداقة وذاكرة سودانية

بقلم: محمد بشير محمد مصطفى
"ود القبائل"

الفهرس:

الإهداء

إلى الأخ والصديق والزميل العزيز:

عبدالواحد أحمد جبارة، ذلك الرجل الذي لم يكن في حياتنا مجرد زميل دراسة، بل صار أخاً في الوجدان، ورفيقاً في الطريق، وواحداً من أولئك الرجال الذين تظل ذكراهم ساكنة في القلب مهما طال الزمن.

الأخ الذي علّمنا أن الصداقة حين تصدق تصبح أهلاً وبيتاً وقرية وطريقاً.

إلى قرية الدوحة بريفي الحوش،إلى أهلها الطيبين،إلى بيت أحمد جبارة، إلى الحاجة فردوس، إلى زروق، وبكري، ومنى، وفتح الرحمن،وإلى كل الوجوه التي صنعت من تلك الأيام فرحاً لا ينسى.

إلى قرية عجان بريفي الحصاحيصا، إلى أمي التي حلفت بيمين الله ألا يغادر الضيوف قبل موعد حليب الأبقار، حيث صارت الصداقة خبزاً وحليباً وذاكرة.

مقدمة الكاتب: ذاكرة لا تموت

ليست كل الطرق تُقاس بما نقطع فيها من مسافات، فبعض الطرق لا تبدأ حين نركب السيارة، ولا تنتهي حين نصل إلى القرية. بعض الطرق تبدأ من نظرة أولى، من سلام عابر في فناء جامعة، من جلسة قرآن بعد صلاة، من كوب شاي في قهوة بسيطة، من صحن عصيدة عند امرأة طيبة، من غرفة داخلية ضيقة، ومن علاقة صادقة تنمو بهدوء حتى تصبح أكبر من الزمالة وأبقى من الزمن.

والطريق إلى الدوحة لم يكن في حقيقته طريقاً جغرافياً من الخرطوم إلى ود مدني، ثم إلى الحوش، ثم إلى قرية الدوحة. كان طريقاً إلى الناس. إلى الصداقة. إلى الوفاء. إلى السودان الذي يسكن في القرى والداخليات والمساجد والمقاهي وأصوات المغنين وحنان الأمهات.

كان طريقاً إلى رجل اسمه عبدالواحد أحمد جبارة، عرفناه في جامعة الخرطوم رجلاً تقياً ورعاً، قريباً من القرآن، مهذباً في حديثه، هادئاً في حضوره، عميقاً في

أثره. لم يكن عبدالواحد من أولئك الذين يملأون الدنيا ضجيجاً، بل من الذين يتركون أثراً صامتاً لا يمحوه الزمن.

كنت أنا طالباً في كلية الآداب، وكان هو طالباً في كلية الاقتصاد. وبين الكليتين، كانت جامعة الخرطوم تمد جسورها. كنا نلتقي في فناء الجامعة، وفي أوقات الصلاة، وفي مسجد الجامعة، ونجلس أحياناً نتلو ما تيسر من القرآن. ثم تمضي بنا الأقدام إلى قهوة عم عبدالله بكلية الآداب، أو إلى روضة بكلية الاقتصاد، أو إلى وجبة فطور بسيطة بالقرب من وزارة التعليم العالي عند أم جمعة، حيث العصيدة المظبوطة والتقلية وملاح النعيمية.

كانت حياتنا بسيطة، لكنها كانت ممتلئة بالمعنى. لم تكن في جيوبنا أموال كثيرة، ولكن في صدورنا كانت هناك أحلام واسعة. لم تكن أيامنا مرفهة، لكنها كانت صادقة. كنا نضحك من القلب، ونجوع من القلب، ونصلي من القلب، ونصادق من القلب.

من تلك البدايات الصغيرة، كبرت العلاقة بيني وبين الأخ عبدالواحد. ثم جاءت الغرفة 17 بداخلية الرهد في مجمع الوسط، فصارت العلاقة أوثق.

هناك، في ضيق الغرفة وسعة الرفقة، عرفنا بعضنا معرفة الرجال للرجال. عرفته في الحياة اليومية، في الصباح والمساء، في التعب والضحك، في الحنين إلى الأهل، وفي حديث القرى والبيوت.

ثم خرجت العلاقة من الجامعة إلى الأسر. جاء عبدالواحد ومن معه إلى قريتنا عجان بريفي الحصاحيصا في زواج ابن عمي، فاستقبلهم أهلي كما يستقبل السودانيون الضيوف الذين صاروا أبناء. وهناك، على صوت الربابة والعرضة والأندوب، حلفت والدتي بيمين الله ألا يغادروا قبل موعد حليب الأبقار، لتقدم لهم من حليب الدار. وكان موسم القمح حاضراً، فأُهدي إلى سائق السيارة محمد كبوس جوال قمح، كأن الأرض نفسها كانت تشارك في إكرام الضيوف.

ومن عجان امتد الطريق إلى الدوحة، إلى قرية عبدالواحد، إلى أهله، إلى بيت أحمد جبارة والحاجة فردوس، إلى زروق الضابط المتقاعد، وإلى منى وزوجها بكري، ذلك الإنسان الشفيف العفيف المرح، وإلى فتح الرحمن الفنان بمعنى الكلمة.

ثم جاء زواج عبدالواحد عام 2011، فضجت قرية الدوحة بالفرح، وتحركنا من الخرطوم في سيارة أتوز حمراء، وكدنا عند مدخل الحوش أن ندخل في حادث حين انحرفت السيارة واصطدمت بالترعة، لكن لطف الله سبق كل شيء، فلم يصب أحد. وواصلنا الطريق إلى الحوش، ثم إلى الدوحة، وهناك اكتملت الحكاية بالحنة، والصيوان، وفرقة الزاهدين، والسيرة إلى الجميلية، ومفاوضات الرحط والحنة، وغناء الفنان التوم، ورقص بكري ، وعكاز عمنا أحمد جبارة وهو يلوح فرحاً وطرباً.

هذه الرواية لا أكتبها لأؤرخ مناسبة زواج فقط، بل لأحفظ زمناً كاملاً. أكتبها لأن الأسماء الطيبة تستحق أن تبقى، ولأن التفاصيل الصغيرة التي تبدو عادية هي في الحقيقة روح الحياة. أكتبها لأن حليب أمي، وجوال القمح، وقهوة عم عبدالله، وعصيدة أم جمعة، وصوت محمد آدم وجلال في مسجد الجامعة، وطبليّة عم عطية، كلها ليست مجرد مشاهد، بل شواهد على زمن كان فيه الناس أقرب إلى بعضهم، وكانت الصداقة أصدق، وكانت الجامعة بيتاً، وكانت القرية قلباً.

الفصل الأول: جامعة الخرطوم... البوابة الأولى

كانت جامعة الخرطوم في تلك الأيام تشبه وطناً مصغراً. من دخلها لم يكن يدخل مجرد مؤسسة تعليمية، بل كان يدخل إلى عالم كامل تتجاور فيه القاعات والمساجد والمقاهي والملاعب والندوات والداخليات، وتتقاطع فيه أحلام الشباب القادمين من كل جهات السودان.

في الصباح، كانت الجامعة تستيقظ على خطوات الطلبة المسرعين إلى المحاضرات. بعضهم يحمل كتبه تحت إبطه، وبعضهم يحمل دفتراً صغيراً، وبعضهم يركض لأنه تأخر، وبعضهم يمشي ببطء كأنه يعرف أن المحاضرة ستبدأ به أو من دونه. كانت الوجوه مختلفة، واللهجات مختلفة، والملابس مختلفة، لكن شيئاً واحداً كان يجمع الجميع: ذلك الشعور بأننا في مكان كبير، وأننا جزء من حكاية أكبر من أعمارنا الصغيرة.

كنتُ طالباً في كلية الآداب. وكانت كلية الآداب بالنسبة لي أكثر من مبنى. كانت عالماً من اللغة والفكر والقراءة والأسئلة. هناك كانت الكلمات تكبر في

داخلي. هناك تعلمت أن النص لا يعيش في الورق فقط، بل يعيش في الإنسان. وأن اللغة ليست مجرد أداة، بل وطن آخر.

أما كلية الاقتصاد، فكانت على مقربة من عالمنا، لكنها تحمل هيبة مختلفة. كان طلابها يبدون في نظري أكثر انشغالاً بالنظام والأرقام والإدارة وقضايا الدولة والمجتمع. ومن هناك جاء عبدالواحد أحمد جبارة.

لم يكن لقائي الأول به صاخباً ولا مرتباً. لم يكن هناك موعد محدد ولا مشهد مسرحي كبير. كان الأمر كما تبدأ العلاقات السودانية غالباً: سلام عابر، ابتسامة، سؤال عن الحال، ثم لقاء آخر، ثم ألفة لا تعرف متى بدأت بالضبط.

كنت أراه في فناء الجامعة. ذلك الفناء كان ملتقى الأرواح. يمر فيه طالب الآداب بطالب الاقتصاد، وطالب القانون بطالب الهندسة، وطالب العلوم بطالب الطب، وكل واحد يحمل عالماً في رأسه. في ذلك الفناء، كانت الجامعة تخلطنا كما تخلط الرياح روائح المدن والقرى.

كان عبدالواحد هادئاً. وهذا أول ما لفت نظري إليه. لم يكن كثير الكلام، لكنه إذا تكلم أحسست أن الكلمة خرجت من مكان مرتب في داخله. كان في وجهه صفاء، وفي سلامه وقار، وفي طريقته أدب لا يتكلفه.

ومع مرور الأيام، صارت اللقاءات تتكرر. نلتقي في الفناء، أو عند المسجد، أو في طريق القهوة، أو بعد صلاة. ولم تكن تلك اللقاءات طويلة في بدايتها، لكنها كانت كافية لتزرع في القلب شعوراً بالقبول.

بعض الناس تحتاج إلى زمن طويل حتى تطمئن إليهم، وبعضهم يفتح الله لهم باباً في قلبك من أول معرفة. وعبدالواحد كان من الصنف الثاني.

كانت جامعة الخرطوم يومها تعج بالحياة. لم تكن الحياة فيها سهلة، لكنها كانت غنية. كنا نعرف معنى الجوع، ومعنى الضيق، ومعنى المشي الطويل تحت الشمس، ومعنى أن تؤجل شراء كتاب لأن المال لا يكفي، لكننا كنا نعرف أيضاً معنى الصحبة، ومعنى الضحك، ومعنى أن يشاركك زميلك آخر ما عنده دون أن يذكرك بذلك.

في تلك البيئة بدأت علاقتي بعبدالواحد. لم تكن علاقة مصلحة، ولم تكن علاقة عابرة. كانت تنمو في هدوء، مثل شجرة صغيرة لا ينتبه إليها الناس في البداية، ثم تمد جذورها عميقاً في الأرض.

ولم أكن أعلم يومها أن هذا الطالب الهادئ من كلية الاقتصاد سيصبح يوماً أحد أعمدة بنك أم درمان الوطني، وضليعاً في علم الإدارة العامة، وعضواً في اتحاد الصحفيين. لكنني كنت أشعر أن وراء هدوئه رجلاً مختلفاً.

****

الفصل الثاني: كلية الآداب وكلية الاقتصاد

كانت المسافة بين كلية الآداب وكلية الاقتصاد قصيرة في المكان، لكنها كانت واسعة في المعنى. كلية الآداب كانت فضاء اللغة والذاكرة، وكلية الاقتصاد كانت فضاء الإدارة والحسابات وفهم حركة الدولة والمجتمع. وبينهما كنا نحن، طلاباً نحاول أن نفهم العالم، ونفهم أنفسنا في الوقت نفسه.

في كلية الآداب، كنت أشعر أن الكلمات تلاحقني من كل جانب. الشعر، النثر، التاريخ، الإعلام، النقد، أصوات الأساتذة، دفاتر المحاضرات، نقاشات الزملاء، والجدل الطويل حول معنى الكتابة ودور المثقف. كانت الكلية تربي فينا حس السؤال، وتفتح أعيننا على أن الحياة ليست سطحاً واحداً.

أما عبدالواحد، القادم من كلية الاقتصاد، فقد كان يحمل هدوءاً أقرب إلى رجال الإدارة. لم يكن يتحدث بعشوائية. كان يستمع أولاً، ثم يقول ما يريد في اختصار ووضوح. وربما لهذا ظللت أربط بينه وبين النظام الداخلي منذ بدايات معرفتنا.

كنا نلتقي في فناء الجامعة. أحياناً يكون اللقاء بعد صلاة الظهر، وأحياناً بين محاضرتين، وأحياناً في طريقنا إلى القهوة. وكان الحديث يبدأ صغيراً: كيف الدراسة؟ كيف السكن؟ هل حضرت الصلاة؟ ما أخبار الأهل؟

ثم يتوسع الحديث قليلاً. نذكر القرى، نذكر الأسر، نذكر هموم الدراسة، نضحك على تعب الطلاب، ثم يمضي كل واحد منا إلى وجهته.

كانت تلك الأحاديث البسيطة تبني شيئاً عميقاً. فالعلاقات الحقيقية لا تحتاج دائماً إلى كلمات كبيرة. أحياناً يكفي أن ترى الإنسان في أوقاته العادية، أن تعرف كيف يسلم، كيف يستمع، كيف يحترم، كيف يمشي معك دون تكلف.

كان عبدالواحد زولاً تقياً وورعاً. لم يكن تدينه ظاهرياً ولا صاخباً. كان في سلوكه. في التزامه بالصلاة، في قربه من المسجد، في طريقته مع الناس. وهذا النوع من التدين يترك أثراً أعمق، لأنه لا يحاول إقناعك بالكلام، بل يجعلك تراه في الفعل.

كنت كلما رأيته، شعرت أن هذا الرجل يحمل في داخله بيتاً منظماً، وأن روحه ليست مبعثرة. والإنسان المنظم من الداخل يظهر في عينيه قبل كلامه.

ومن كلية الآداب إلى كلية الاقتصاد، ومن الفناء إلى المسجد، بدأت تلك الخيوط الأولى التي ستقودنا لاحقاً إلى غرفة 17، ثم إلى عجان، ثم إلى الدوحة.

****

الفصل الثالث: مسجد الجامعة... حيث كنا نقرأ القرآن

كان مسجد جامعة الخرطوم مكاناً لا يشبه بقية الأمكنة.

في الخارج، كانت الجامعة تموج بحركة لا تهدأ: محاضرات، نقاشات، ندوات، هتافات أحياناً، ضحكات، خطوات، ازدحام، وطلاب يركضون خلف الزمن. أما داخل المسجد، فكان كل شيء يهدأ.

حين تدخل المسجد، تشعر أنك خلعت عنك ضجيج اليوم عند الباب. كان المكان بسيطاً، لكنه مهيب. المصاحف في أماكنها، الصفوف تنتظم، والطلاب يدخلون فرادى وجماعات. بعضهم يأتي متعباً من محاضرة، وبعضهم يأتي من نقاش طويل، وبعضهم يأتي لأنه لا يجد مكاناً أهدأ من المسجد يلتقط فيه أنفاسه.

هناك كنت ألتقي عبدالواحد كثيراً. نصلي، ثم نجلس أحياناً نتلو ما تيسر من القرآن. لم تكن الجلسات مرتبة ببرنامج كبير، لكنها كانت صادقة. نقرأ ما فتح الله به، ثم نسكت قليلاً، ثم نتحدث حديثاً خفيفاً.

كان عبدالواحد في المسجد أكثر صفاءً. كأن المكان يليق بروحه. لم يكن غريباً أن يكون إماماً، ولا غريباً أن يحبه من عرفوه هناك. كان في صوته هدوء، وفي وقوفه سكينة، وفي التزامه ما يجعلك تشعر أن هذا الرجل لا يدخل المسجد كزائر، بل كواحد من أهله.

كنا شباباً، والشباب في الجامعة تجره الحياة في اتجاهات كثيرة. لكن المسجد كان يعيدنا إلى المركز. كنا نخرج منه وقد خفّت ضوضاء الرأس قليلاً. وربما كان هذا ما جعل علاقتي بعبدالواحد تتأسس على شيء متين. فالصحبة التي تبدأ عند الصلاة والقرآن، لا تشبه الصحبة التي تبدأ عند المصالح العابرة.

ولا يمكن أن أذكر المسجد دون أن أذكر رجاله. أولئك الذين كانوا جزءاً من ذاكرة المكان، وإن لم يكونوا جميعاً في الواجهة.

****

الفصل الرابع: عم عطية وطبليّة المسجد

كان عم عطية واحداً من تلك الشخصيات التي لا تصنع ضجيجاً، لكنها تصنع ألفة المكان.

كان يهتم بنظافة مسجد الجامعة، ويتابع شأنه بهمة رجل يعرف أن خدمة المسجد شرف لا وظيفة عابرة. وكان عنده طبلية صغيرة يبيع عليها بعض الأغراض البسيطة للطلاب.

رحمه الله وغفر له.

كانت طبليته جزءاً من المشهد. نمر عليها فنجد ما يحتاجه الطالب من أشياء صغيرة. وربما لم يكن عم عطية يدري أن تلك الطبلية ستظل في ذاكرة بعضنا بعد سنوات طويلة. لكن هكذا هي الحياة؛ الأشياء البسيطة التي لا ننتبه إليها في وقتها، تصبح لاحقاً علامات كبرى على الزمن.

كان عم عطية يذكرنا بأهل السودان البسطاء الذين يخدمون الأماكن بأمانة. لم يكن أستاذاً في القاعات، لكنه كان معلماً من نوع آخر. يعلمك أن قيمة الإنسان ليست في المنصب، بل في صدق ما يفعل. وأن تنظيف المسجد والعناية به قد تكون عند الله أعظم من كلام كثير يذهب مع الهواء.

كنت أراه فأشعر أن المسجد له أهله. ليس فقط الإمام والطلاب، بل أيضاً ذلك الرجل الذي يعتني بنظافته، ويرتب تفاصيله، ويجلس على طبليته قريباً من الباب، كأنه حارس للبساطة.

في ذاكرة مسجد الجامعة، يظل عم عطية حاضراً. عليه الرحمة والمغفرة، وجزاه الله عن تلك الخدمة خير الجزاء.

****

الفصل الخامس: محمد آدم وجلال... أصوات التلاوة

كان الإمام الرسمي للمسجد محمد آدم، وكان شقيقه جلال من الأصوات التي شنفَت آذاننا بتلاوة آيات الله.

بعض الأصوات حين تقرأ القرآن، لا تسمعها بالأذن فقط، بل تسمعها بالقلب. كانت تلاوتهما تحمل خشوعاً يلامس الداخل، خاصة في تلك اللحظات التي يكون فيها الطالب مثقلاً بتعب الدراسة وغربة السكن وضيق اليد.

كنا نصلي خلف محمد آدم، أو نستمع إلى تلاوة جلال، فنشعر أن الجامعة كلها تهدأ حولنا. آيات الله حين تُقرأ بصوت صادق، تجعل المكان أكبر من جدرانه، وتجعل الإنسان ينسى قليلاً ما يحمله من هموم.

في ذلك المسجد، كان عبدالواحد يجد بيئته الطبيعية. وكان حضور أمثال محمد آدم وجلال يزيد المكان نوراً. هؤلاء الناس لم يكونوا مجرد أسماء عابرة، بل كانوا جزءاً من تكوين الذاكرة الروحية لذلك الزمن.

ولا تزال أصوات التلاوة، حين تعود إلى الذاكرة، تعيد معها صورة المسجد، وملمس السجادة، وصفوف الطلاب، ووجه عبدالواحد الهادئ وهو يجلس بعد الصلاة.

****

الفصل السادس: قهوة عم عبدالله بكلية الآداب

في جامعة الخرطوم، لم تكن القاعات وحدها هي التي تربي الطلاب.

كانت هناك أماكن صغيرة، تبدو في ظاهرها عادية، لكنها في الحقيقة كانت مدارس أخرى للحياة. ومن بين تلك الأماكن، كانت قهوة عم عبدالله بكلية الآداب.

كانت القهوة ركناً بسيطاً، لا يزعم الفخامة، ولا يحتاج إليها. بضعة مقاعد، أكواب شاي، رائحة قهوة، أصوات طلاب، دخان يتصاعد أحياناً من بعيد، ووجوه تأتي وتذهب كأنها جزء من حركة يومية لا تتوقف.

لكن قهوة عم عبدالله لم تكن مجرد مكان نشرب فيه الشاي. كانت مجلساً مفتوحاً. فيها كنا نخلع تعب المحاضرات، ونستعيد أنفاسنا، ونبدأ الكلام الذي لا ينتهي. هناك كان الطالب يصبح أكثر صدقاً. في القاعة يكون الإنسان منتبهاً، ممسكاً بقلمه، يحاول أن يثبت أنه حاضر. أما في القهوة، فإنه يعود إلى

طبيعته: يضحك، يشكو، يحلم، يجادل، ينسى قليلاً أنه طالب مطلوب منه أن ينجح في الامتحانات.

كان عم عبدالله يعرفنا كما يعرف أهل الحي أبناء الحي. يعرف من يحب الشاي خفيفاً، ومن يطلب القهوة، ومن يدفع فوراً، ومن يقول له:

"يا عم عبدالله، ختّها عليّ".

وكان عم عبدالله، بوجهه الصبور، يعرف أن الطالب قد لا يملك في جيبه إلا قيمة المواصلات، ومع ذلك لا يريد أن يُحرم من كوب شاي مع أصحابه.

في تلك القهوة، كانت كلية الآداب تظهر على حقيقتها. طلبة يتحدثون عن الشعر، وآخرون عن السياسة، وآخرون عن الامتحانات، وآخرون لا يتحدثون عن شيء محدد، لكنهم يملأون المكان بالحياة. كانت الوجوه تأتي من أقسام مختلفة، لكن القهوة تجمعهم بلا استئذان.

كنت أجلس هناك كثيراً، أراقب الناس كما يراقب الكاتب بدايات نصوصه. كل طالب كان حكاية. كل ضحكة كانت مفتاحاً لشخصية. كل صمت كان يخفي خلفه قرية بعيدة أو أسرة تنتظر أو حلماً لا يريد صاحبه أن يفصح عنه.

ومن حين إلى آخر، كان عبدالواحد يمر أو أجده قريباً من المكان. لم تكن كلية الآداب كليته، لكنه كان جزءاً من ذلك العبور الجميل بين الكليات. كنا إذا التقينا، بدأ الحديث بسيطاً، كما تبدأ كل الأحاديث الصادقة.

أقول له:

"كيف يا عبدالواحد؟ الدراسة كيف؟"

فيبتسم تلك الابتسامة الهادئة ويقول:

"الحمد لله... ربنا يسهل".

لم يكن يطيل الشكوى، حتى إن كان متعباً. كان في طبعه رضا لا يشبه الاستسلام، بل يشبه الثقة. وكنت أرى فيه ذلك النوع من الرجال الذين لا يكثرون الكلام عن الصعوبات، لأنهم يعبرونها في صمت.

في قهوة عم عبدالله، كنا نتعلم أن الحياة لا تحتاج إلى كثير من البهرجة حتى تكون جميلة. كوب شاي، زميل صادق، حديث عن الأهل، ضحكة في وقتها، تكفي لتجعل اليوم أخف.

وكانت تلك القهوة، دون أن تدري، تمهّد الطريق إلى صداقات كبرى.

فالصداقة لا تبدأ دائماً بموقف عظيم. أحياناً تبدأ من كوب شاي، من مقعد خشبي، من ظل شجرة، من سؤال بسيط:

"أخبارك شنو؟"

ولعل الطريق إلى الدوحة بدأ من هناك أيضاً، من قهوة عم عبدالله، قبل أن يبدأ فعلياً على الطريق الترابي والشارع المسفلت. بدأ من تلك الأماكن التي جمعتنا في الجامعة، وعرّفتنا على بعضنا قبل أن نعرف بيوت بعضنا.

****

الفصل السابع: روضة كلية الاقتصاد ورائحة القهوة

إذا كانت قهوة عم عبدالله تمثل وجدان كلية الآداب، فإن روضة كلية الاقتصاد كانت محطة أخرى من محطات الذاكرة، ومكاناً يليق بعالم عبدالواحد الأول داخل الجامعة.

في روضة كلية الاقتصاد، كانت القهوة لها مذاق مختلف. هناك كنت أشعر أنني ضيف على عالم آخر. الوجوه مختلفة قليلاً، والحديث يحمل شيئاً من روح الاقتصاد والإدارة والسياسة العامة. كان طلبة الاقتصاد يتحدثون بلغة تمزج بين أرقام الدولة وأحوال الناس، بين الميزانية والأسعار، بين التنمية والوظائف، بين ما يدرسونه في القاعة وما يرونه في واقع السودان.

كنت أذهب إلى هناك أحياناً، فأجد عبدالواحد في محيطه الطبيعي. يجلس بهدوء، يسمع أكثر مما يتكلم، وإذا تحدث قال كلاماً موزوناً. كان من ذلك النوع الذي لا يحاول أن يثبت حضوره بالضجيج. حضوره كان يثبت نفسه بلا جهد.

رائحة القهوة في روضة الاقتصاد كانت تختلط بأصوات الطلاب.

"واحد قهوة".

“شاي سادة”.

“يا زول المحاضرة بدأت؟”

“الدكتور حضر؟”

“الامتحان دا ما مضمون”.

وتتداخل هذه العبارات اليومية لتصنع موسيقى الجامعة. لا يلتفت إليها الإنسان في وقتها، لكنه حين يبتعد عنها، يكتشف أنها كانت أجمل مما ظن.

كنت أجلس مع عبدالواحد أحياناً، ونتحدث عن الدراسة، عن الحياة، عن الأهل. كان يحدثني عن الدوحة والحوش، وكنت أحدثه عن عجان والحصاحيصا. لم نكن نعرف أن هذه الأسماء ستتلاقى يوماً في الواقع، وأن أهل عجان سيعرفون أهل الدوحة، وأن الطريق بين القريتين سيُرسم في الذاكرة لا في الخرائط فقط.

كان عبدالواحد حين يذكر أهله يتحدث باحترام واضح. هناك رجال تعرف تربيتهم من طريقة ذكرهم لوالديهم. لا يحتاجون أن يقولوا إنهم أبناء بيوت طيبة؛ يكفي أن تسمع نبرة الصوت حين يذكرون الأم أو الأب.

وكنت ألاحظ أن روضة الاقتصاد ليست مجرد مكان لشرب القهوة، بل مساحة لتشكيل شخصية الطلاب. في تلك الأركان الصغيرة، يتعلم الطالب كيف يناقش، كيف يستمع، كيف يختلف، وكيف يبني علاقة تتجاوز حدود الدفعة والكلية.

ومع مرور الوقت، صار الانتقال بين كلية الآداب وكلية الاقتصاد انتقالاً بين بيتين داخل بيت واحد.

في الآداب لغتي وناسي وعم عبدالله.

وفي الاقتصاد عبدالواحد وروضة القهوة وعالمه الهادئ.

وبين الاثنين كانت جامعة الخرطوم تمد حبل الود.

ولعل أجمل ما في تلك الأيام أن الأشياء كانت بسيطة. لم نكن نحتاج إلى مواعيد دقيقة ولا رسائل طويلة. يكفي أن تعرف أن صاحبك غالباً سيكون في المسجد بعد الصلاة، أو عند القهوة، أو في طريق الفطور. كانت الحياة مفهومة أكثر، والناس أقرب، والوقت أبطأ قليلاً مما صار عليه لاحقاً.

في روضة الاقتصاد، رأيت عبدالواحد في بيئته الدراسية، كما رأيته في المسجد في بيئته الروحية. وبين الصورتين اكتملت عندي ملامح الرجل: طالب اقتصاد، رجل قرآن، هادئ، متزن، قريب من القلب.

****

الفصل الثامن: أم جمعة... عصيدة وملاح نعيمية

ومن القهوة إلى الفطور، ومن الكلام إلى الجوع، كان الطريق يقودنا كثيراً إلى مكان قريب من وزارة التعليم العالي، حيث كانت القامة أم جمعة.

أم جمعة لم تكن مجرد امرأة تبيع الطعام للطلاب. كانت جزءاً من حياتنا اليومية. في الجامعة، يعرف الطالب قيمة من يطعمه. فالطالب ليس جائعاً إلى الطعام

وحده، بل جائع إلى لمسة بيت، إلى طعام يشبه طعام الأمهات، إلى امرأة تناديه كأنه ولدها، لا زبون عابر.

كانت العصيدة عند أم جمعة مظبوطة.

ليست رخوة حتى تضيع هيبتها، ولا قاسية حتى تتعب اليد.

كانت تعرف ميزانها كما تعرف النساء السودانيات ميزان الطعام بالفطرة.

أما التقلية، فكانت حكاية أخرى. رائحتها تسبقها. وحين يمتزج ملاح النعيمية بالعصيدة، يشعر الطالب أن الدنيا، رغم قسوتها، لا تزال قادرة على منحه لحظة رضا.

كنا نجلس حول الطعام، نأكل بشهية الطلاب، ونتحدث بين اللقيمات. أحدنا يعلق على المحاضرة، آخر يذكر امتحاناً قادماً، ثالث يضحك من موقف حدث في الداخلية، ورابع يسأل عن زميل غاب.

وكان عبدالواحد، بهدوئه المعروف، جزءاً من تلك الجلسات. يأكل ببساطة، يتحدث بأدب، ولا يرفع صوته. كان حضوره يجعل المجلس متزناً. بعض الناس

حين يجلسون معك، يضيفون إلى المكان ضحكاً، وبعضهم يضيفون هيبة، وبعضهم يضيفون طمأنينة. وعبدالواحد كان من أهل الطمأنينة.

أم جمعة كانت تعرف الطلاب، أو على الأقل تعرف طباعهم. كانت ترى في وجوهنا تعب الدراسة، وتعرف أن كثيرين منا جاءوا من قرى بعيدة، وأن الجامعة وإن كانت عظيمة، فإن الغربة داخلها ليست سهلة.

كم من مرة خرج طالب من عندها وقد شبع بطنه وخف قلبه.

وكم من مرة كانت العصيدة عندها سبباً في أن نكمل يومنا دون ضجر.

وكم من مرة جلسنا هناك ونحن لا نملك إلا القليل، ومع ذلك كنا نشعر بالغنى لأننا كنا معاً.

كان ذلك الفطور البسيط جزءاً من تكوين علاقتنا. ففي الطعام المشترك تنكشف الأرواح. من يمد يده للآخر، من يترك آخر لقمة، من يدفع عن صاحبه، من يضحك حين تسيل التقلية على طرف الثوب، من يطلب زيادة، من يقول لأم جمعة:

“يا حاجة، الملاح دا ظابط شديد”.

كانت تضحك، وربما تقول:

“أكلوا يا أولادي... ربنا يوفقكم”.

تلك الدعوات الصغيرة من النساء الطيبات ربما كانت تحرسنا أكثر مما نعلم.

ربما كان في دعاء أم جمعة، وفي دعاء أمهاتنا البعيدات، ما حملنا عبر تلك السنوات حتى خرجنا من الجامعة رجالاً نواجه الحياة.

واليوم، حين أتذكر الطريق إلى الدوحة، لا أستطيع أن أفصله عن أم جمعة. لأن الدوحة لم تكن بداية الطريق، بل كانت محطة متأخرة في طريق بدأ من الجامعة، من المسجد، من القهوة، ومن طبق عصيدة ساخن عند امرأة كريمة.

****

الفصل التاسع: وجوه من زمن الجامعة

الجامعة لا تبقى في الذاكرة كمبانٍ فقط.

المباني تتغير، الجدران تصمت، الأشجار تكبر أو تُقطع، لكن الوجوه تبقى.

وجوه الزملاء، الأساتذة، العمال، بائعي الشاي، الأئمة، رواد المسجد، ورفاق الداخليات.

كلما حاولت أن أكتب عن تلك الفترة، خرجت الأسماء من قلبي متزاحمة. كأن كل اسم يقول:

"لا تنسني... فقد كنت هناك".

ولا أريد أن أنسى.

لأن النسيان خيانة صغيرة لمن شاركونا الطريق.

كان هناك زملاء حملوا معنا تعب الدراسة وفرح الشباب. منهم من صار قاضياً، ومنهم من صار أستاذاً جامعياً، ومنهم من مضى في دروب الحياة المختلفة. لكنهم في ذاكرتي لا يزالون كما كانوا: شباباً في جامعة الخرطوم، يضحكون في الفناء، ويسرعون إلى المحاضرات، ويجلسون في القهاوي، ويتجادلون في الميدان الشرقي، ويصلون في المسجد.

من بين تلك الأسماء يبرز موسى دبال وخالد حاروق، أبناء قرية عراق بريفي العزازي. كانا يحملان في روحهما بساطة القرى وألفة أهل الجزيرة. حين تتحدث معهما تشعر أن القرية حاضرة؛ في اللهجة، في الملامح، في العفوية، وفي ذلك الصفاء الذي لا تصنعه المدن بسهولة.

وكان هناك الأخ مقبل حمد النيل العركي، ابن قرية ود أبو عاقلة، الذي صار لاحقاً قاضياً. كان مقبل يحمل شيئاً من الاتزان. وفي الجامعة تستطيع أحياناً أن تلمح مستقبل الإنسان في طريقته قبل أن يحدث. بعض الناس يكون القضاء ظاهراً في نبرته، والتعليم ظاهراً في صبره، والإدارة ظاهرة في ترتيبه، والفن ظاهراً في عينيه.

ولا أنسى أخانا قائد الركب محمد عبدالله إسماعيل. بعض الأسماء تأتي ومعها لقبها ومعناها. حين تقول "قائد الركب"، فأنت لا تذكر شخصاً فقط، بل تستدعي روح قيادة، وحضوراً وسط المجموعة.

ولا أنسى حذيفة المعتصم عبدالرحيم، ولا الدكتور حسن حسين قاسم، الذي صار أستاذاً محاضراً بجامعة الجزيرة. وحين أذكر حسن حسين قاسم، أتذكر كيف

أن الجامعة كانت تزرع في بعضنا بذوراً لا تظهر إلا بعد سنوات. طالب اليوم يصبح أستاذ الغد، والجالس في القهوة يصبح صاحب منبر، والذي يكتب ملاحظاته في دفتر صغير قد يقف يوماً أمام قاعة كاملة يشرح للطلاب.

ومن الأسماء القريبة أيضاً الأخ النيل الفاضل من قرية مريحلة. كنا نعرفه ونعرف والده وإخوانه. وهذه المعرفة الأسرية كانت من خصائص زمننا. لم تكن تعرف الزميل وحده، بل تعرف جذره. تسأل عنه فتسمع اسم أبيه، واسم القرية، وربما اسم عمه وأخيه. هكذا كانت العلاقات تمتد في الأرض.

كانت القائمة تطول، وكل اسم فيها يحمل حكاية. ولو كتبت عن كل واحد بما يستحق، لصارت الرواية روايات. لكن يكفي أن نثبتهم هنا كشهود على زمن الجامعة، وعلى الطريق الذي بدأ من هناك وانتهى، أو لم ينتهِ، في الدوحة.

****

الفصل العاشر: موسى دبال وخالد حاروق ومقبل العركي

كان موسى دبال وخالد حاروق من أبناء قرية عراق بريفي العزازي، وكان حضورهما في الذاكرة مرتبطاً بتلك البساطة التي يحملها أبناء القرى حين يدخلون المدينة دون أن تسرق المدينة أرواحهم.

كانا من النوع الذي تشعر معه أن الضحكة قريبة، وأن الحديث لا يحتاج إلى مقدمات طويلة. كنا نلتقي في الجامعة، فتأتي أخبار القرى معهما كأنها نسيم. أخبار الأهل، الزراعة، المناسبات، الطرق، والأسفار. في الجامعة، كان كل طالب يحمل قريته معه. لا يراها الناس، لكنها تظهر في كلامه، في عاداته، في طريقة أكله، في حنينه، وفي ضحكته.

قرية عراق، ريفي العزازي، لم تكن بالنسبة لي مجرد اسم حين عرفت موسى وخالد. صارت وجهاً وصوتاً وأخوة. وهذا هو سر العلاقات الجامعية في السودان؛ أنها تجعل الجغرافيا إنسانية. القرية التي لم تزرها تصبح قريبة لأن صديقك منها.

أما مقبل حمد النيل العركي، ابن ود أبو عاقلة، فقد كان يحمل سمتاً آخر. فيه جدية، وفيه رصانة، وفيه شيء من ملامح القضاء الذي صار إليه لاحقاً. لم

يكن الأمر مفاجئاً حين عرفت أنه أصبح قاضياً. بعض الناس تمشي أقدارهم أمامهم، ونحن لا ننتبه إلا بعد أن يصلوا.

كنت إذا رأيت مقبل أو تحدثت معه، أحسست أن الرجل يزن الكلام. لا يندفع كما يندفع بعض الشباب، ولا يترك نفسه للضجيج. كان فيه اتزان يليق بمن سيجلس لاحقاً في موقع يحتاج إلى العدل والحكمة.

هؤلاء الزملاء لم يكونوا هامشاً في الحكاية. هم جزء من الطريق إلى الدوحة لأنهم جزء من العالم الذي كوّننا. فعبدالواحد لم يكن وحده في تلك المرحلة، وأنا لم أكن وحدي. كنا جميعاً نعيش زمناً واحداً، وكل واحد منا كان يضيف إلى الآخر شيئاً.

الجامعة لم تكن تصنع الفرد منفصلاً، بل تصنع الجماعة.

كنا نتعلم من بعضنا أكثر مما نظن.

من موسى وخالد نتعلم بساطة القرى، ومن مقبل نتعلم الاتزان، ومن عبدالواحد نتعلم الورع والهدوء، ومن المسجد نتعلم السكينة، ومن أم جمعة نتعلم أن الطعام يمكن أن يكون دعاءً.

****

الفصل الحادي عشر: زميلات الدراسة والقاضيات

في تلك المرحلة، كانت زميلات الدراسة حاضرات بقوة واحترام.

لم تكن جامعة الخرطوم مكاناً للرجال وحدهم، بل كانت فضاءً تظهر فيه المرأة السودانية المتعلمة، الجادة، الطموحة، والقادرة على أن تشق طريقها في مجالات العلم والعمل العام.

ولا أنسى أخواتنا وزميلات الدراسة: أفريقيا محمد حسب الرسول، وأم النصر، وآسية، بنات قرية التي، ولا أنسى رشيدة زين العابدين من كلية القانون، التي صارت قاضية.

كانت هذه الأسماء تمثل صورة مشرقة للمرأة القادمة من القرية أو المدينة إلى الجامعة، تحمل حلم الأسرة، وكرامة التعليم، وإصراراً لا يعلن عن نفسه كثيراً لكنه حاضر في السلوك.

كنا نراهن في القاعات، وفي الممرات، وفي ساحات الجامعة، ونعرف أنهن يخضن الطريق نفسه الذي نخوضه: محاضرات، امتحانات، غربة، مسؤولية، وتوقعات كبيرة من الأهل. لكنهن كن يضفن إلى المكان وقاراً خاصاً.

حين صارت بعضهن في سلك القضاء، لم يكن ذلك غريباً. فالجامعة كانت تعدهن لذلك. والقانون، كما الإدارة، لا يحتاج إلى علم فقط، بل يحتاج إلى شخصية، إلى صبر، إلى قدرة على الفهم، وإلى ضمير. ومن رأى تلك الجدية في أيام الجامعة، يدرك أن المستقبل كان يتهيأ في صمت.

وجود هؤلاء الزميلات في الرواية مهم، لأن الذاكرة إن لم تنصف النساء صارت ناقصة. فالجامعة لم تكن رجالاً يضحكون في القهوة فقط، بل كانت أيضاً نساءً يدرسن، يجتهدن، يحملن دفاترهن بوقار، ويمضين نحو مواقع محترمة في الحياة.

وكلما ذكرت أسماءهن، شعرت أن الطريق إلى الدوحة يتسع أكثر. لم يعد طريق صديقين فقط، بل طريق جيل كامل خرج من جامعة الخرطوم، كل واحد منه يحمل حكايته، ثم تفرقت بهم الحياة في القضاء والتعليم والإدارة والصحافة والبنوك والكتابة.

****

الفصل الثاني عشر: الميدان الشرقي وأسبوع التراث

كان الميدان الشرقي في جامعة الخرطوم قلباً صاخباً من قلوب الجامعة.

هناك كانت الندوات، الفعاليات، النقاشات، والحشود. كان الميدان مساحة يتعلم فيها الطالب أن الجامعة ليست كتباً وامتحانات فقط، بل رأي وموقف وحوار وصوت.

في الميدان الشرقي، كانت الأفكار تمشي على قدمين. ترى الطالب الذي كان صامتاً في القاعة يقف هناك ويتحدث بحماس. وترى آخر يستمع، وآخر يعترض، وآخر يصفق. كانت الجامعة في ذلك الميدان تكشف عن وجهها العام، عن روحها التي لا تقبل السكون.

ولا يمكن أن أنسى أسبوع التراث.

كان أسبوع التراث مناسبة يتجلى فيها السودان بكل ألوانه. الملابس، الإيقاعات، الرقصات، الأطعمة، اللهجات، الأغاني، الصور، والمعروضات. كأن السودان كله يختصر نفسه في مساحة واحدة داخل الجامعة.

كان الطالب القادم من الشرق يرى شيئاً من أهله، والقادم من الغرب يجد ما يشبهه، وابن الجزيرة يسمع إيقاعاً يعرفه، وابن الشمال يرى أثراً من بيئته. كنا

نكتشف أن السودان ليس جهة واحدة ولا صوتاً واحداً، بل فسيفساء واسعة، إذا اجتمعت صارت أجمل.

في أسبوعِ التراث، كانت الجامعة تصبح قرية كبيرة، أو ربما تصبح السودان نفسه. كنا نطوف بين الأركان، نضحك، نتذوق، نسأل، نسمع، ونشعر أن هذا التنوع ليس عبئاً، بل نعمة.

وكانت هذه الفعاليات تضيف إلى علاقتنا بعبدالواحد وزملائنا بعداً آخر. كنا لا نلتقي فقط في المسجد أو القهوة، بل في فضاءات الثقافة العامة. وهذا ما جعل الذاكرة غنية. فقد جمعتنا الصلاة، وجمعنا الطعام، وجمعنا التراث، وجمعنا الكتاب، وجمعتنا الطرق التي نمشيها كل يوم دون أن ندري أنها تصنعنا.

****

الفصل الثالث عشر: معرض الكتاب ومجمع الوسط

كان معرض الكتاب بمجمع الوسط جامعة الخرطوم واحداً من تلك الأحداث التي تفتح شهية الروح.

الكتب مصطفة، العناوين تنادي، الطلاب يتجولون بين الطاولات، بعضهم يشتري، وبعضهم يقرأ واقفاً، وبعضهم يكتفي بالسؤال عن السعر ثم يمضي وهو يقول لنفسه:

"نشتريه بعدين".

لكن "بعدين" عند الطالب قد تأتي وقد لا تأتي.

ومع ذلك، كان الوقوف بين الكتب متعة وحده.

كنت أشعر أن معرض الكتاب يفتح أمامي أبواباً كثيرة. كتاب في الأدب، كتاب في الفكر، كتاب في التاريخ، مجلة قديمة، ديوان شعر، دراسة سياسية، وكل عنوان يجر وراءه عالماً. وبصفتي طالباً في كلية الآداب، كانت علاقتي بالكتاب علاقة حياة. لم يكن الكتاب سلعة، بل رفيقاً، وربما قدراً.

في مجمع الوسط، كانت الحياة الطلابية أكثر كثافة. الداخليات، الحركة، الوجوه، الأصوات، الطرق المؤدية إلى القاعات والمسجد والمقاهي. وكان وجود معرض الكتاب هناك يجعل المكان أكثر حياة. كأن الجامعة تقول لنا: لا تكتفوا بالمحاضرات، اقرأوا العالم بأنفسكم.

ولا تغيب عن هذه المرحلة أسماء مثل مكي شميلة وصاحبه الشامي. كانوا جزءاً من حركة المكان ونبضه. بعض الأشخاص لا تعرف كيف تربطهم بالذاكرة، لكنك حين تذكر المرحلة تجدهم واقفين في طرف الصورة.

ومعرض الكتاب، مثل أسبوع التراث، كان جزءاً من تكويننا. جعلنا نفهم أن الجامعة ليست دراسة للحصول على شهادة، بل فضاء لصناعة الوعي. ومن هذا الوعي خرجت صداقاتنا، وخرجت أحلامنا، وخرج الطريق الطويل إلى الدوحة.

****

الفصل الرابع عشر: غرفة 17 بداخلية الرهد

ثم جاءت غرفة 17 بداخلية الرهد في مجمع الوسط.

وللداخليات في جامعة الخرطوم ذاكرة خاصة لا تشبه ذاكرة القاعات. القاعة تمنحك العلم، أما الداخلية فتمنحك معرفة الناس. في القاعة ترى زميلك مرتباً، حاضراً، ماسكاً قلمه ودفتره، أما في الداخلية فتراه كما هو: حين يستيقظ، حين يتعب، حين يغضب، حين يضحك، حين يشتاق لأهله، وحين لا يجد ما يقوله فيجلس صامتاً ينظر إلى السقف.

غرفة 17 لم تكن غرفة واسعة، لكنها كانت واسعة بما حملته من أرواح.

فيها اختلطت الكتب بالملابس، وأكواب الشاي بأوراق المحاضرات، وحكايات القرى بأحلام المستقبل. كانت الجدران تسمع منا أكثر مما يسمعه الناس في الخارج. كنا نعود إليها آخر اليوم مثقلين بالمحاضرات والطرق الطويلة والحر

والشمس والجوع، فنجد فيها شيئاً من الراحة، لا لأنها مريحة، بل لأنها كانت تخصنا.

في تلك الغرفة، توضدت علاقتي بعبدالواحد.

قبلها عرفته في فناء الجامعة، وفي مسجد الجامعة، وفي قهوة عم عبدالله، وروضة الاقتصاد، وعند أم جمعة. لكن معرفة الداخلية شيء آخر. هناك لا تبقى المعرفة عند حدود السلام والسؤال عن الحال. هناك تصبح الحياة مشتركة.

تعرف الإنسان من طريقته في ترتيب فراشه، ومن صبره على ضيق المكان، ومن حرصه على الصلاة، ومن احترامه لراحة الآخرين، ومن قدرته على احتمال اختلاف الطباع. والداخلية لا ترحم أصحاب الأقنعة. من كان متصنعاً، فضحته الأيام. ومن كان أصيلاً، زاده القرب وضوحاً.

كان عبدالواحد في غرفة 17 كما عرفته خارجها: هادئاً، متزناً، قريباً من القلب.

لم يكن ممن يفتعلون الوجود بالصوت العالي. كان وجوده مثل ظل شجرة في يوم حار؛ لا يضج، لكنه يريحك.

كنا نتحدث عن الجامعة، وعن المحاضرات، وعن أخبار الأهل، وعن المساجد، وعن القرى. كان يحدثني عن الدوحة والحوش، وأحدثه عن عجان والحصاحيصا. كنا نضحك أحياناً على بساطة الحال، وعلى هموم الطلاب، وعلى تلك الحياة التي كانت قاسية في ظاهرها لكنها اليوم تبدو من أجمل ما مر علينا.

في غرفة 17، تعلمنا أن الصداقة لا تُبنى بالكلمات وحدها.

تُبنى بالمشاركة.

أن تشارك صاحبك ضيق الغرفة، أن تراه متعباً فلا تثقل عليه، أن تعرف متى تحدثه ومتى تتركه، أن تحفظ له مكانه، أن تسأله عن أهله، وأن تشعر أن غيابه لا يمر دون أن تلاحظه.

كان عبدالواحد قريباً إلى قلبي.

ولم يكن ذلك القرب مفاجئاً. فقد كانت كل التفاصيل الصغيرة تقود إليه.

ورعه، أدبه، هدوؤه، طريقته في السلام، قربه من القرآن، احترامه للناس، وحديثه عن أهله. كل ذلك كان يجعل العلاقة تكبر دون أن ننتبه.

غرفة 17 صارت في الذاكرة أكثر من رقم.

صارت علامة على مرحلة.

رقم صغير يحمل داخله زمناً واسعاً.

كلما سمعت "غرفة 17"، رأيت وجوهنا هناك، وسمعت أصواتنا، وشممت رائحة الشاي، ورأيت عبدالواحد جالساً في هدوئه المعروف، كأنه جزء من المكان.

وفي تلك الغرفة، بدأت الصداقة تخرج من كونها زمالة جامعية إلى معنى أكبر. بدأنا نعرف الأسر، ونذكر الأمهات والآباء والإخوة، ونتبادل أخبار القرى. ومن هنا، بدأت الطريق الحقيقية إلى عجان، ثم إلى الدوحة.

****

الفصل الخامس عشر: عبدالواحد... الرجل الذي صار أخاً

هناك أصدقاء يمرون في حياة الإنسان كما يمر العابرون في محطة سفر، وهناك أصدقاء يصبحون مثل ملامحك، لا تستطيع أن تفصلهم عن صورتك القديمة.

عبدالواحد أحمد جبارة كان من النوع الثاني.

لم يكن مجرد زميل دراسة.

ولم يكن مجرد رجل كنا نلتقيه في المسجد.

ولم يكن مجرد ساكن معنا في غرفة 17.

كان أخاً بالمعنى الذي لا تكتبه الأوراق، ولا تصنعه المجاملات، بل تصنعه الأيام.

كان رجلاً تقياً وورعاً. وهذه العبارة ليست مدحاً عابراً، بل وصف لحالة رأيتها وعشتها. الورع عند عبدالواحد لم يكن في المظهر فقط، ولا في كثرة الكلام عن الدين، بل كان في طريقة الحياة. في هدوئه، في احترامه للناس، في التزامه بالصلاة، في أدبه حين يختلف، وفي صمته حين يكون الصمت أليق.

كنا شباباً، والشباب بطبيعته يميل إلى الحركة والضحك والاندفاع أحياناً. لكن عبدالواحد كان يحمل ميزاناً داخلياً. لا يمنعك من الفرح، ولا يثقل عليك بالمواعظ، لكنه بحضوره وحده يجعلك أكثر اتزاناً. بعض الناس وجودهم تذكير، دون أن يقولوا شيئاً.

كنت أشعر أن فيه طمأنينة.

إذا جلست معه، لا تشعر أنك مطالب بتمثيل دور ما. تستطيع أن تكون كما أنت. وهذا من أندر ما في الصداقة. أن تجد إنساناً لا تحتاج معه إلى تكلّف.

كان يذكر أهله باحترام ومحبة. ومن طريقة ذكر الإنسان لأهله تعرف معدنه. كان إذا تحدث عن والده أو والدته، شعرت أن وراءه بيتاً يعرف التربية. وكنت حين أسمعه يتحدث عن الدوحة والحوش، أرى القرية قبل أن أزورها. كأن كلامه كان يمهّد لي الطريق.

ومع مرور الأيام، لم يعد عبدالواحد اسماً في دفتر الزملاء. صار جزءاً من تفاصيلي الجامعية. إذا ذكرت مسجد الجامعة ذكرته. إذا ذكرت غرفة 17 حضر. إذا ذكرت كلية الاقتصاد رأيته. وإذا ذكرت الطريق إلى الدوحة، صار هو أول الطريق وآخره.

الصداقة بين الرجال لا تحتاج إلى كثرة إعلان.

قد لا يقول لك صاحبك كل يوم إنه يحبك، لكنه يقف معك. يزور أهلك. يدخلك بيته. يحفظ غيبتك. يفرح لفرحك. يحزن لما يصيبك. وهذه المعاني كانت حاضرة بيني وبين عبدالواحد.

لذلك حين أكتب عنه الآن، لا أكتب بلسان المؤرخ البارد، بل بلسان الأخ الذي يرى في الذاكرة وجهاً مضيئاً. أكتب عنه لأن الوفاء يطلب الكتابة، ولأن

الرجال الطيبين ينبغي ألا تتركهم الذاكرة الشفاهية وحدها، فقد يأتي زمن ينشغل الناس فيه عن الحكايات، فتضيع الوجوه التي كانت تستحق أن تبقى.

****

الفصل السادس عشر: عبدالواحد الإداري والصحفي

لم تقف حياة عبدالواحد عند حدود الجامعة، كما لم تقف صداقتنا عند حدود غرفة 17.

خرج عبدالواحد إلى الحياة العملية وهو يحمل معه ما عرفناه فيه من انضباط ووقار وهدوء. وليس غريباً أن يصبح لاحقاً أحد أعمدة بنك أم درمان الوطني. فالذي عرفه في الجامعة يدرك أن الرجل كان مؤهلاً لأن يكون في موضع مسؤولية.

كان من الضليعين في علم الإدارة العامة.

وهذا العلم، في حقيقته، لا يقوم على الكتب وحدها. نعم، الكتب تمنح الإنسان المفاهيم والنظريات، لكن الإدارة تحتاج إلى شيء أعمق: فهم الناس، وضبط النفس، وحسن تقدير المواقف، والقدرة على الإصغاء، واتخاذ القرار في الوقت المناسب. وهذه الصفات كانت ظاهرة في عبدالواحد منذ بداياته.

كان منظماً في داخله.

والتنظيم الداخلي هو أساس الإدارة الخارجية.

من لا يدير نفسه، يصعب عليه أن يدير عملاً أو مؤسسة أو فريقاً.

وعبدالواحد كان من أولئك الذين تشعر أن في داخلهم ترتيباً لا تراه لكنه ينعكس على سلوكهم.

وعضويته في اتحاد الصحفيين تضيف إلى صورته بعداً آخر. فهو ليس رجل إدارة وبنوك فقط، بل صاحب وعي عام واتصال بالكلمة والمجتمع. والصحافة ليست مجرد كتابة أخبار، بل هي نظر إلى الناس، وإحساس بالشأن العام، وقدرة على قراءة ما وراء الأحداث.

ولعل هذا الجمع بين الإدارة والصحافة والورع هو ما يجعل شخصية عبدالواحد مميزة.

فيه من رجل المسجد سكينة.

وفيه من رجل الاقتصاد والإدارة ترتيب.

وفيه من الصحفي وعي.

وفيه من ابن القرية بساطة وأصالة.

لكن رغم كل المواقع والألقاب، ظل عندي ذلك الصديق الذي عرفته في الجامعة.

فالزمن قد يضيف للإنسان ألقاباً، لكنه لا يغير جوهره إن كان الجوهر ثابتاً.

وعبدالواحد في ذاكرتي قبل كل شيء أخٌ كريم، رجل طيب، وصاحب طريق.

أكتب هذا لا لأضع سيرته في قالب رسمي، بل لأبيّن أن البدايات الصادقة غالباً ما تكشف النهايات المشرفة. ذلك الطالب الهادئ في كلية الاقتصاد، ذلك

الشاب الذي كان يجلس في مسجد الجامعة ويتلو القرآن، ذلك الرفيق في غرفة 17، لم يكن غريباً أن يجد له مكاناً في مواقع المسؤولية.

فالأصل الطيب إذا وجد علماً وتجربة، أثمر رجلاً تعتمد عليه الناس.

****

الفصل السابع عشر: من الجامعة إلى معرفة الأسر

حين تصدق الصداقة في السودان، لا تبقى بين شخصين.

تخرج من الجامعة إلى البيوت، ومن البيوت إلى القرى، ومن القرى إلى الأمهات والآباء والإخوة، حتى تصبح العلاقة نسباً معنوياً لا يحتاج إلى وثيقة.

هكذا كانت علاقتي بعبدالواحد.

بدأنا زملاء في رحاب جامعة الخرطوم.

ثم صرنا رفقاء مسجد وداخلية.

ثم بدأنا نعرف تفاصيل أكبر عن بعضنا.

هو يعرف عجان، وأنا أعرف الدوحة.

هو يسمع عن أهلي، وأنا أسمع عن أهله.

في البداية كانت الأسماء تمر في الحديث:

أمي، والدي، إخوتي، القرية، الموسم، الزواج، الأهل.

ثم شيئاً فشيئاً صارت الأسماء ملامح.

لم تعد الدوحة مجرد اسم قرية. صارت بيت عبدالواحد.

ولم تعد عجان مجرد موطن لي. صارت مكاناً سيزوره عبدالواحد ورفاقه.

في تلك المرحلة، شعرت أن الصداقة أخذت شكلاً أعمق. لأن الإنسان حين يفتح لك باب أسرته، فهو يفتح لك جزءاً من قلبه. يمكن أن تزامل كثيرين، لكن ليس كل زميل يدخل دائرة الأهل. وعبدالواحد دخلها بصدق.

كان يعرف أخي مجدي، وإخواني معتز ودفع الله من عجان. وأنا لاحقاً عرفت والده ووالدته الحاجة فردوس، وعرفت إخوته وأهله في الدوحة والحوش. وهنا اكتملت الدائرة.

بعض العلاقات تظل معلقة في الهواء، لا جذر لها.

أما علاقتنا فوجدت جذورها في الأرض.

في عجان والدوحة.

في حليب الأبقار وجوال القمح.

في بيت أحمد جبارة والحاجة فردوس.

في زواج 2011، وفي الطريق، وفي الحوش، وفي الجميلية، وفي ود حسين.

وهذا ما يجعلني أكتب هذه الرواية لا كسرد لذكريات منفصلة، بل كحكاية طريق. فكل محطة قادت إلى التي بعدها. فناء الجامعة قاد إلى المسجد. المسجد قاد إلى غرفة 17. غرفة 17 قادت إلى معرفة الأسر. معرفة الأسر قادت إلى عجان. وعجان فتحت الطريق إلى الدوحة.

****

الفصل الثامن عشر: عجان تستقبل الرفقة

حين جاء عبدالواحد ومن معه إلى قرية عجان بريفي الحصاحيصا في زواج ابن عمي، شعرت أن شيئاً جميلاً اكتمل.

عجان ليست مجرد مكان ولدت فيه أو أنتمي إليه. عجان هي رائحة الطين، ووجوه الناس، ونداءات الأمهات، وصوت البهائم في الصباح، ومواسم

الزراعة، ودفء البيوت، وكرم لا يحتاج إلى إعلان. ومن يدخل عجان ضيفاً، لا يبقى غريباً طويلاً.

جاء عبدالواحد ورفاقه، فدخلوا الدار ومعهم روح الجامعة.

كانوا يحملون في وجوههم أثر الطريق، وفي حضورهم معنى الصداقة. ولم يكونوا عندي ضيوفاً عاديين. كانوا زملاء العمر، رفاق الجامعة، وأهل القلب.

في القرى، حين يأتي الضيوف، لا يتحرك صاحب المناسبة وحده. تتحرك الأسرة كلها. النساء يسألن:

"الضيوف ديل من وين؟"

"أصحاب محمد؟"

"أها لازم يتكرموا".

والرجال يوسعون المكان، ويفتحون المجالس، ويهتمون بالقهوة والشاي والطعام.

والأطفال يراقبون الوجوه الجديدة، يحاولون أن يفهموا صلة هؤلاء بالبيت.

كانت المناسبة زواج ابن عمي، وكان الفرح حاضراً في كل ناحية. غير أن مجيء عبدالواحد ومن معه أضاف إلى الفرح معنى خاصاً. فقد شعرت أن الجامعة دخلت عجان، وأن العلاقة التي بدأت في الخرطوم صارت الآن تمشي على أرض القرية.

كنت أنظر إلى عبدالواحد وسط أهلي، فأشعر بالرضا.

هذا الرجل الذي عرفته في المسجد والداخلية، ها هو بين أهلي، يشرب من قهوتهم، يسمع أغانيهم، يرى عاداتهم، ويجلس في دارنا كواحد منا.

وكانت والدتي، بفطرتها العميقة، تفهم الأشياء دون شرح طويل. لم تسأل كثيراً عن كلية الاقتصاد، ولا عن غرفة 17، ولا عن تفاصيل الجامعة. يكفيها أن تعرف أنهم أصحاب ولدها. وهذا وحده عندها سبب كافٍ للإكرام.

في تلك الليلة، كان الفرح سودانياً خالصاً.

ليس فرحاً مصطنعاً ولا مرتباً على طريقة المدن. كان فرحاً يخرج من الناس كما يخرج الماء من البئر. بسيطاً، عميقاً، وواسعاً.

****

الفصل التاسع عشر: الربابة والعرضة والأندوب

كانت الربابة حاضرة في زواج عجان، وصوت الربابة في القرى ليس مجرد موسيقى. إنه ذاكرة تتحرك. حين يعلو صوتها، تشعر أن الأرض نفسها بدأت تحكي. فيها حنين الرعاة، وفخر الرجال، ودمعة الأمهات، وصدى المواسم.

والعرضة كانت تملأ المكان.

رجال يقفون في صفوف، يتقدمون ويتراجعون، تضرب أقدامهم الأرض بثقة.

ليست العرضة مجرد حركة جسد، بل إعلان انتماء. كأن الرجل حين يضرب الأرض بقدمه يقول:

"أنا ابن هذه الأرض، وهذا فرحي، وهؤلاء أهلي".

وكان الأندوب يخرج من الحناجر حاملاً نبرة سودانية لا تخطئها الروح. الأندوب ليس غناءً عادياً، بل نداء وجداني، فيه فخر وحزن وفرح في وقت واحد. كأنه صوت الجماعة حين تتذكر أصلها. في تلك الأجواء، رأيت عبدالواحد ورفاقه يشاركوننا اللحظة. ربما كانوا ضيوفاً في ظاهر الأمر، لكن الفرح السوداني لا يسمح لك أن تظل متفرجاً طويلاً. يأخذك من يدك ويدخلك في الدائرة.

كنت أشعر أن كل صوت في تلك الليلة يربط العلاقة أكثر.

الربابة تقول: مرحباً.

العرضة تقول: أنتم بين أهلكم.

الأندوب يقول: هذا الفرح لا يخص بيتاً واحداً، بل يخص كل من حضر.

وتلك هي قوة المناسبات في القرى. إنها لا تكتفي بأن تجمع الناس في مكان واحد، بل تجعلهم يشعرون أنهم ينتمون إلى معنى واحد.

كان عبدالواحد يرى عجان كما هي: قرية طيبة، كريمة، محبة للفرح، تحفظ للضيف مكانته. وربما رأى في أهلها ما كنت أراه أنا لاحقاً في أهل الدوحة. فالقرى السودانية، مهما اختلفت أسماؤها، تتشابه في جوهرها حين يتعلق الأمر بالكرم والفرح.

الفصل العشرون: يمين أمي وحليب الأبقار

حين همّ عبدالواحد ورفاقه بالمغادرة، حدث موقف لا يزال في داخلي كما لو أنه وقع بالأمس.

والدتي، تلك المرأة التي تعرف الكرم بفطرتها لا بتعليمات أحد، حلفت بيمين الله ألا يغادروا قبل موعد حليب الأبقار.

لم يكن الأمر عندها مجرد تقديم مشروب. كان موقفاً من مواقف الضيافة. كانت تريد أن تعطيهم من خير الدار، من لبن البهائم، من بركة البيت.

في القرية، الحليب له معنى خاص.

هو ليس سائلاً أبيض فقط.

هو صباحات البهائم، وجهد النساء، وبركة الرزق، وعلاقة الإنسان بالأرض والحيوان والبيت. حين تقدم الأم الحليب لضيف، فهي لا تقدم شيئاً مادياً فحسب، بل تقدم جزءاً من روح الدار.

قالت بما معناه:

"والله ما يمشوا إلا يشربوا اللبن".

ولم يكن أحد يستطيع أن يرد يمين الأم.

انتظروا.

كان ذلك الانتظار جميلاً. كأن الوقت توقف قليلاً ليمنح العلاقة فرصة أن تتجذر أكثر. جلسوا، وتواصل الحديث، وبقيت المناسبة ممتدة رغم أن لحظة الوداع كانت قد اقتربت.

ثم جاء الحليب.

حليب طازج من أبقار الدار.

شربوا منه، وشربت معهم الذاكرة.

ولم يكن الحليب وحده هو ما وصل إليهم، بل وصلت إليهم رسالة أمي: أنتم لستم غرباء.

ما زلت أرى ذلك المشهد كواحد من أنقى مشاهد الرواية. لأنه لا يقوم على حدث كبير بمعايير الناس، لكنه كبير بمعيار القلب. رجل يزورك مع رفاقه، وأمك تحلف ألا يغادر قبل أن يشرب من حليب داركم. أي شهادة على القبول أعمق من هذه؟

في ذلك اليوم، صارت العلاقة مختومة بالحليب.

والأشياء التي يختمها حليب الأمهات لا تمحوها السنين

.********************************

الفصل الحادي والعشرون: جوال القمح ومحمد كبوس

كان موسم القمح حاضراً في عجان، ومواسم القمح لها بهجة خاصة في قرى الجزيرة.

القمح ليس محصولاً فقط. إنه تعب موسم، وانتظار مطر أو ري، وسهر رجال، ودعاء نساء، وأمل بيوت. وحين يمتلئ الجوال بالقمح، فهو لا يحمل حبوباً فقط، بل يحمل شهوراً من الرجاء والعمل.

بعد ضيافة الحليب، أُهدي إلى سائق السيارة محمد كبوس جوال قمح.

وقد يبدو الأمر بسيطاً لمن لا يعرف معنى القرى، لكنه عندي كان من أجمل تفاصيل الحكاية.

محمد كبوس لم يكن واحداً من أصحاب الجامعة، ولم يكن هو الضيف المقصود بالمناسبة. كان السائق الذي جاء بهم. لكن في منطق الكرم السوداني، من جاء بالضيوف له حق. ومن تعب في الطريق لا يعود خالي اليدين إن كان في البيت خير.

جوال القمح كان هدية من الأرض.

كأن عجان تقول لمحمد كبوس:

"أنت أيضاً لك نصيبك من خيرنا".

وهذا هو الكرم الحقيقي. لا يختار الناس بحسب ألقابهم. لا يقول هذا زميل جامعي وهذا سائق. الكل في حضرة الضيافة سواء. لكل واحد مكانه، ولكل واحد نصيبه.

ظل ذلك الجوال في ذاكرتي رمزاً.

رمزاً لموسم القمح، ولأمي، ولعجان، وللضيافة التي لا تتكلم كثيراً لكنها تفعل.

ومن يومها، شعرت أن عبدالواحد لم يعد يعرفني وحدي، بل عرف أهلي وذوقهم وكرمهم وطريقتهم في استقبال الناس. وشعرت أنا أيضاً أن هذه العلاقة لا بد أن تكتمل بزيارتي إلى ديارهم.

هكذا بدأ الطريق إلى الدوحة يقترب.

لم يكن الطريق قد بدأ على الإسفلت بعد، لكنه بدأ في القلب منذ تلك اللحظة:

من حليب الأبقار، ومن جوال القمح، ومن عجان التي فتحت صدرها لأصدقاء الجامعة.

****

الفصل الثاني والعشرون: الطريق إلى الدوحة

بعد زيارة عبدالواحد ورفاقه إلى عجان، وبعد حليب الأبقار وجوال القمح،

صار الطريق إلى الدوحة مسألة وقت لا أكثر.

كنت أشعر أن العلاقة لم تكتمل بعد.

هو عرف أرضي وأهلي وبيتي ووالدتي وموسم القمح في قريتنا، وكان لا بد أن أعرف أنا أيضاً أرضه وأهله وبيته والقرية التي خرج منها ذلك الرجل الهادئ النبيل.

بعض الزيارات تكون عادية، وبعضها يكون مثل رد الجميل. لكن زيارتي إلى الدوحة لم تكن مجاملة، بل كانت امتداداً طبيعياً لصداقة تجاوزت حدود الجامعة. أردت أن أرى المكان الذي صنع عبدالواحد. أن أرى البيت الذي ربّاه، والأم التي أنجبته، والأب الذي وقف خلفه، والإخوة الذين شاركوه طفولة القرية وشبابها.

الطريق إلى الدوحة كان في داخلي قبل أن يكون أمامي.

كنت أسمع اسمها من عبدالواحد، فأحس أنني أعرفها من بعيد. كأن القرية كانت تتشكل في خيالي من كلماته: بيوت طيبة، ناس كرام، أهل يعرفون معنى الضيف، وبيئة تشبه روح عبدالواحد في هدوئها ووقارها.

حين يبدأ الإنسان رحلة إلى قرية صديقه، فهو لا يذهب إلى مكان مجهول تماماً. يذهب وفي قلبه صورة صنعها الكلام. وربما لهذا كنت أشعر بالقرب قبل الوصول.

مررنا في الطريق على مشاهد الجزيرة التي لا تخطئها العين. الأرض المنبسطة، الحقول، الطرق التي تحمل أثر العربات والغبار، الناس في حركتهم اليومية، والقرى المتجاورة التي تشبه بعضها في بساطتها وتختلف في تفاصيلها الصغيرة. السودان في تلك الجهات لا يحتاج إلى شرح كثير. يكفي أن تنظر إلى الناس وهم يمضون في أعمالهم، لتعرف أن الحياة هناك صعبة لكنها عامرة بالمعنى.

كنت أفكر في عبدالواحد.

أقول في نفسي: هذا الرجل الذي رأيته في مسجد الجامعة، ورأيته في غرفة 17، ورأيته وسط أهلي في عجان، الآن سأراه في أصله الأول. هناك، في الدوحة، ستكتمل صورته.

فالإنسان لا يُعرف كاملاً إلا إذا عرفت بيته.

الجامعة تكشف عقله.

المسجد يكشف روحه.

الداخلية تكشف طبعه.

لكن البيت يكشف جذره.

وكانت الدوحة تنتظر.

****

الفصل الثالث والعشرون: الدوحة بريفي الحوش

حين وصلت إلى قرية الدوحة بريفي الحوش، شعرت منذ اللحظة الأولى أنني لست غريباً.

بعض القرى تستقبلك قبل أن تدخلها. تراها من بعيد، فتشعر أن فيها شيئاً من الألفة. الدوحة كانت كذلك. لم تكن قرية صاخبة، لكنها كانت دافئة. في ملامحها بساطة، وفي ناسها طيبة، وفي هوائها رائحة أرض تعرف أهلها جيداً.

القرى السودانية لا تحتاج إلى بوابات كبيرة لتعلن عن نفسها. يكفي أن ترى البيوت، وجلسات الرجال، وحركة النساء، وفضول الأطفال، وصوت البهائم، ورائحة الطعام أو القهوة في مكان ما، لتعرف أنك دخلت عالماً له قوانينه الجميلة.

في الدوحة، لم أشعر أنني ضيف ثقيل. شعرت أنني وصلت إلى أهل. وكان هذا الإحساس أهم من كل شيء. فالضيف قد يُكرم بالطعام والشراب، لكن أن يشعر بأنه مأمون الجانب، مرحب به من القلب، فهذا هو الكرم الحقيقي.

أهل الدوحة كانوا مثل اسم الأسرة التي عرفت منها عبدالواحد: جبارة في الكرم، جبارة في الحضور، جبارة في حفظ الود. لم يكن استقبالهم استقبالاً رسمياً متكلفاً، بل استقبال أهل لأخ جاء من بعيد.

كنت أرى في وجوه الناس شيئاً من ملامح عبدالواحد. ذلك الهدوء، ذلك الوقار، تلك البساطة التي لا تحتاج إلى زينة. وكأن القرية كلها تفسر بعضه.

في الدوحة، بدأت الأسماء التي سمعتها سابقاً تتحول إلى وجوه حقيقية. لم تعد الحاجة فردوس اسماً يذكره عبدالواحد باحترام، بل صارت أماً أمامي. ولم يعد زروق مجرد أخ ضابط متقاعد، بل صار رجلاً له هيئة وحضور. ولم يعد بكري اسماً عابراً، بل صار روحاً مرحة تمشي بين الناس. ولم يعد فتح الرحمن مجرد شقيق فنان، بل صار صوتاً وإحساساً.

هكذا تتحول الذاكرة من السماع إلى الرؤية.

ومن الرؤية إلى المحبة.

****

الفصل الرابع والعشرون: بيت أحمد جبارة والحاجة فردوس

دخلت بيت الأسرة، فشعرت أنني دخلت بيتاً سودانياً أصيلاً.

كان بيت أحمد جبارة يحمل وقار البيوت التي تعرف أصلها. البيوت في القرى ليست جدراناً فحسب، بل تاريخ عائلي، وسمعة، وطريقة في استقبال الناس، ونظام غير مكتوب يعرفه الجميع. حين تدخل بيتاً مثل هذا، تشعر أن لك مقاماً قبل أن تطلبه.

التقيت بوالد عبدالواحد، وكان في حضوره وقار الآباء. ذلك النوع من الرجال الذين لا يحتاجون إلى كلمات كثيرة حتى تعرف أنهم سند البيت. في نظراته هدوء، وفي جلسته ثبات، وفي طريقته مع الضيوف كرم رصين لا يبالغ ولا يقصّر.

ثم التقيت بوالدته الحاجة فردوس.

والحاجة فردوس من الأمهات اللاتي تشعر معهن أن البيت له قلب. بعض النساء لا يملكن البيت بمعنى السلطة، بل بمعنى البركة. تتحرك الأشياء حولهن لأن وجودهن هو مركز الطمأنينة.

كان في وجهها لطف الأمهات، وفي استقبالها ذلك الحنان الذي لا يحتاج إلى معرفة سابقة. وربما لأنني جئت من طرف عبدالواحد، فقد كان لي في قلبها

مكان قبل أن أصل. أمهات الأصدقاء في السودان يعاملنك أحياناً كأنك ابن تأخر وصوله فقط.

جلست بينهم وأنا أشعر أن العلاقة انتقلت إلى درجة أخرى.

لم أعد أقول: صديقي عبدالواحد، صرت أقول في داخلي: أهل عبدالواحد.

وهذا فرق كبير.

حين تعرف أهل صديقك، يصبح الصديق شجرة لها جذور أمامك. ترى التربة التي خرج منها، وترى الوجوه التي تشبهه، وترى لماذا كان كما كان.

في بيت أحمد جبارة والحاجة فردوس، فهمت بعض سر عبدالواح،فالأدب لا ينبت وحده، والوقار لا يأتي من فراغ، والورع غالباً ما يكون وراءه بيت يحترم الله والناس.

****

<u>الفصل الخامس والعشرون: زروق الضابط المتقاعد</u>

من بين من عرفتهم في تلك الأسرة، كان زروق، أخو عبدالواحد، حاضراً بهيبته الخاصة.

زروق الضابط المتقاعد من القوات المسلحة، كان يحمل سمت العسكرية حتى وهو بين أهله. بعض المهن تترك أثرها في الجسد وطريقة الوقوف ونبرة الصوت. والعسكرية، خاصة في السودان، تصنع في الرجال نوعاً من الانضباط الظاهر. ترى ذلك في الجلسة، في حركة اليد، في دقة الملاحظة، وفي احترام النظام.

لكن زروق لم يكن صلابة فقط. كان خلف وقاره رجل بيت، أخاً، وابن قرية، يعرف معنى الأهل والضيف. وهذا الجمع بين الصلابة واللين هو ما يميز الرجال الذين خرجوا من بيوت طيبة ثم صقلتهم الحياة.

كنت أنظر إليه وأرى جانباً آخر من أسرة عبدالواحد.

عبدالواحد رجل مسجد وإدارة، زروق رجل جيش وانضباط.

فتح الرحمن رجل فن وطرب،بكري رجل فرح وخفة روح.

والحاجة فردوس قلب البيت.

وكأن الأسرة لوحة متعددة الألوان، لا يطغى فيها لون على آخر.

وجود زروق أعطى المكان هيبة. تشعر أن البيت له رجال يقفون خلفه. وفي القرى، حضور الرجال ليس استعراضاً، بل حماية معنوية للبيت وسمعته ومكانته.

في حديثه، كنت ألمح تجربة السنين. الضباط المتقاعدون غالباً يحملون حكايات كثيرة، حتى إن لم يرووها كلها. حكايات المعسكرات، السفر، الانضباط، الأوامر، البلاد، وتقلبات الحياة. وربما لهذا كنت أقدّر وجوده، وأشعر أن البيت لا يضم أفراداً عاديين، بل شخصيات لها مسارات تستحق الكتابة.

زروق كان جزءاً من الطريق إلى فهم عبدالواحد.

فالإنسان أخو إخوته أيضاً. نعرف شيئاً عنه حين نرى من نشأ معهم وتقاسم معهم البيت والطفولة والاسم.

****

الفصل السادس والعشرون: منى وبكري... الطيبة والفرح

في مدينة الحوش، كانت تسكن شقيقة عبدالواحد منى وزوجها بكري.

ومنى، مثل أخوات البيوت الطيبة، كانت حاضرة في الذاكرة من خلال صلتها بالأسرة وبذلك الجو العائلي الذي لمسته في الدوحة. أما بكري، فكان حكاية وحده.

بكري رجل من طينة أخرى.

رجل شفيف، عفيف، مرح، شبابي الروح.

فيه خفة لا تعني السطحية، وفرح لا يعني الغفلة. بعض الناس يملكون قدرة عجيبة على إدخال البهجة إلى المكان دون أن يتكلفوا. بكري كان من هؤلاء.

كان يحب الطرب، يحب الفرح، ويعرف كيف يشارك الناس مناسباتهم بروحه كلها. لا يقف على حافة الفرح، بل يدخل إليه من أوسع أبوابه. وإذا رقص، شعرت أن الرقص عنده ليس حركة قدمين فقط، بل حالة قلب.

في الرجال أمثال بكري، ترى وجهاً مهماً من وجوه المجتمع السوداني. فالقرى والبيوت لا تقوم على الوقار وحده. تحتاج أيضاً إلى من يضحك، ومن يخفف، ومن يملأ الليالي بالألفة، ومن يجعل المناسبات أكثر دفئاً.

كنت أشعر أن بكري قريب من الناس لأنه صادق في فرحه.

والفرح الصادق لا يخفى.

قد ترى رجلاً يضحك، لكن قلبه بعيد. أما بكري فكان إذا فرح، حضر كله.

ومع الأيام، صار بكري في ذاكرتي أحد أعمدة تلك الحكاية. ليس لأنه محور الحدث، بل لأنه منح الحدث روحه المرحة. في زواج عبدالواحد، كان بكري علامة من علامات الفرح. وسأعود إليه لاحقاً حين أكتب عن ليلة العرس، لأنه في تلك الليلة صار الفرح يمشي على قدمين.

****

الفصل السابع والعشرون: فتح الرحمن الفنان

أما فتح الرحمن، شقيق عبدالواحد، فكان فناناً بمعنى الكلمة.

الفنان الحقيقي لا يُعرف من صوته وحده، بل من روحه. قد يملك الإنسان صوتاً جميلاً ولا يكون فناناً، وقد يكون الفن في طريقته، في إحساسه، في حضوره، في نظرته إلى الفرح والحزن والناس. وفتح الرحمن كان يحمل الفن كحالة.

في بيت واحد، كان عبدالواحد يمثل جانب السكينة والورع، وفتح الرحمن يمثل جانب الطرب والإحساس. وهذا الجمع كان جميلاً. فالحياة السودانية لا تفصل بين الذكر والغناء كما يتخيل البعض. في بيوتنا، قد يبدأ اليوم بقرآن، وينتهي بربابة، وبينهما عمل وضحك وضيافة. وهذا ليس تناقضاً، بل توازن.

فتح الرحمن كان جزءاً من ذلك التوازن.

حين تراه، تشعر أن الفن في الأسرة ليس غريباً. فالبيوت الطيبة تنتج أنواعاً مختلفة من الجمال. واحد يحمل المصحف، وآخر يحمل اللحن، وثالث يحمل

البندقية دفاعاً عن الوطن، ورابع يحمل الفرح في خطواته، وكلهم من بيت واحد.

وكان لفتح الرحمن حضوره الخاص في زواج عبدالواحد، خاصة أن فرحه هو أيضاً كان متزامناً مع فرح أخيه. فقد أتى بعروسته من قرية ود النور القريبة من مدني، ليصبح الفرح فرحين، والبيت بيت عريسين.

وهذا ما جعل مناسبة 2011 في الدوحة مختلفة. لم تكن ليلة عرس واحدة، بل موجة فرح كاملة. عبدالواحد، الشيخ الهادئ، وفتح الرحمن، الفنان، كلاهما في لحظة عبور إلى حياة جديدة.

في تلك الليلة، كانت الأسرة كلها كأنها تغني بصوت واحد.

****

الفصل الثامن والعشرون: ما قبل زواج 2011

قبل أن يأتي زواج عبدالواحد في عام 2011، كانت العلاقة قد نضجت بما يكفي لتجعل حضوري أمراً طبيعياً لا يحتاج إلى دعوة رسمية ثقيلة. كنت واحداً من أهل الفرح، لا مجرد زميل مدعو.

الزواج في القرى السودانية لا يبدأ يوم الحفل. يبدأ قبله بأيام، وربما بأسابيع. يبدأ حين يكثر الحديث في البيوت، وحين تبدأ النساء في التخطيط، وحين يتحرك الرجال لترتيب الصيوان والذبيح والضيافة، وحين يسأل الناس: "العرس متين؟" "الحنة متين؟" "الضيوف جايين من وين؟"

في الدوحة، كان زواج عبدالواحد حدثاً يخص الأسرة والقرية. فعبدالواحد ليس شخصاً مجهولاً. هو ابن البيت، ابن القرية، الرجل المعروف بورعه وخلقه. وفرح مثل هذا لا يبقى داخل جدران البيت. ينتشر في الطرقات والقلوب.

كانت القرية تستعد بطريقتها.

لا صخب المدن ولا تكلف القاعات المغلقة.

الاستعداد هناك له رائحة طعام، وصوت رجال يحملون، ونساء يجهزن، وشباب يركضون بين البيوت، وأطفال يراقبون كل شيء بفرح مبكر.

كنت أستعيد في داخلي ما حدث في عجان، وأشعر أن الدور الآن للدوحة أن تفتح قلبها. وكنت واثقاً أنها ستفعل. فالكرم الذي رأيته في حديث عبدالواحد، ثم في بيتهم، كان كافياً ليجعلني أتصور العرس قبل أن أراه.

لكن الطريق إلى العرس نفسه كانت له حكاية.

حكاية الأتوز الحمراء، والطريق إلى ود مدني، والحادث عند الترعة، ولطف الله الذي سبق كل شيء.

****

الفصل التاسع والعشرون: زواج 2011

في عام 2011، ضجت قرية الدوحة بزواج الأخ عبدالواحد أحمد جبارة.

والضجيج هنا ليس ضجيجاً مزعجاً، بل ضجيج الفرح. ذلك الضجيج السوداني الجميل الذي يختلط فيه صوت النساء ونداءات الرجال وزغاريد البنات وغناء السيرة وحركة الأطفال ورائحة الطعام، حتى تصبح القرية كلها كأنها قلب واحد ينبض.

تحركنا من الخرطوم ناحية ود مدني، ثم الحوش، ومنها إلى الدوحة. كنا نحمل معنا ذاكرة الجامعة ودفء الزمالة. لم نكن ذاهبين إلى عرس عادي، بل إلى عرس أخ وصديق. وهذا يجعل الطريق نفسه جزءاً من المناسبة.

كان معنا من الزملاء والأحباب من جعل الرحلة عامرة بالكلام والضحك. حين يسافر الشباب إلى عرس، لا تكون السيارة مجرد وسيلة نقل، بل مجلساً متحركاً. كل واحد يحكي، وآخر يعلق، وثالث يضحك، ورابع ينظر من النافذة إلى الطريق كأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً.

ركبنا سيارة أتوز حمراء.

صغيرة في حجمها، لكنها حملت من الفرح ما يكفي حافلة. كان لونها الأحمر كأنه مناسب للمناسبة. الأحمر لون الحياة والفرح والحركة. وكنا نحن داخلها مثل مجموعة من الذكريات تمضي إلى أن تُكتب.

في الطريق، كانت الخرطوم تبتعد شيئاً فشيئاً، وتقترب الجزيرة.

والجزيرة حين تقترب، يعرفها القلب قبل العين. الطرق، الحقول، القرى، الناس، رائحة الأرض، كلها تقول إنك تمضي إلى مكان يشبهك.

كنا نتحدث عن عبدالواحد، عن العرس، عن الدوحة، عن أهلها، وعن ما ينتظرنا هناك. لم نكن نعلم أن الطريق سيمنحنا موقفاً سيظل عالقاً في الذاكرة قبل أن نصل.

****

الفصل الثلاثون: الأتوز الحمراء وحادث الترعة

عند مدخل مدينة ود مدني، حدث ما لم يكن في الحسبان.

كان السائق كبيراً في السن. وربما أخذته لحظة سهو خاطفة. لحظة واحدة فقط تكفي أحياناً لتغير مزاج الطريق كله. فإذا بالسيارة تنحرف وتصطدم بالترعة.

في لحظة، سكتت الأصوات.

الضحك توقف.

الكلام انقطع.

والفرح الذي كان يملأ السيارة تراجع خطوة أمام الخوف.

هناك لحظات قصيرة جداً لكنها تبدو طويلة وهي تحدث. ترى السيارة تنحرف، تسمع صوت الاصطدام، تشعر بجسدك يتحرك بغير إرادتك، ثم تبحث بعينك

عن وجوه من معك: "الناس كويسين؟" "في زول اتأذى؟" "الحمد لله... الحمد لله".

وأراد الله ألا يصيب أحد منا.

خرجنا من الموقف بلطفه سالمين.

بعد الاطمئنان، عاد الصوت شيئاً فشيئاً. عاد الضحك، لكنه لم يعد الضحك الأول. صار ضحكاً مخلوطاً بالحمد. كأن كل واحد منا تذكر فجأة أن الطريق ليس ملكاً لنا، وأن الوصول إلى الفرح نعمة لا تحدث إلا بإذن الله.

كان ذلك الحادث الصغير في نتيجته كبيراً في معناه.

علّمنا أن السفر، مهما بدا بسيطاً، يحتاج إلى حفظ. وأن الفرح، قبل أن يكون غناءً وزغاريد، هو أن تصل سالماً إلى من تحب.

واصلنا الطريق إلى الحوش، ثم إلى الدوحة.

لكن الأتوز الحمراء صارت منذ ذلك اليوم جزءاً من الرواية. لا يمكن أن أذكر زواج عبدالواحد دون أن أذكرها. ولا يمكن أن أذكر الطريق إلى الدوحة دون أن أذكر الترعة التي كادت توقفنا، ولطف الله الذي جعلها مجرد ذكرى لا مأساة.

****

الفصل الحادي والثلاثون: الحوش... مدينة العبق والرجال

وصلنا إلى مدينة الحوش، وهناك لم تكن الحوش مجرد محطة في الطريق. كانت مدينة لها في داخلي صدى خاص.

كنت أستنشق فيها رائحة لاعب الهلال الراحل والي الدين، ابن هذه المدينة. والي الدين لم يكن مجرد لاعب كرة قدم، بل كان اسماً ارتبط بوجدان محبي الهلال والرياضة السودانية. بعض الأسماء الرياضية تتجاوز الملاعب وتصبح جزءاً من ذاكرة المدن والناس. والحوش وهي تنجب مثل والي الدين، تترك في قلب الزائر شعوراً بأنها مدينة تعرف معنى الموهبة.

وفي الحوش أيضاً حضرت في ذاكرتي صورة أستاذي شريف محمد جبارة، أستاذي بمدرسة الفوار الثانوية. المعلمون الحقيقيون لا يغادرون تلاميذهم. قد تمر السنوات، وتتغير المدن، لكن اسم الأستاذ يبقى له مقام خاص. وحين تذكره في مدينة لها صلة به، تشعر أن الذاكرة وقفت لتسلم عليه.

كما حضرت سيرة الفنان شمت محمد نور، بما يحمله اسمه من طرب وأصالة. وهكذا صارت الحوش في داخلي مدينة تجمع الرياضة والتعليم والفن. مدينة لها أكثر من باب إلى القلب.

قلت في نفسي: "يا الله... عبق التاريخ هنا مختلف".

كنت في الطريق إلى عرس عبدالواحد، لكن الأماكن لا تسمح لك دائماً أن تمر بها مروراً عادياً. بعض المدن توقفك لتذكرك برجالها. والحوش فعلت ذلك. جعلتني أتذكر والي الدين، وشريف محمد جبارة، وشمت محمد نور، قبل أن أكمل الطريق إلى الدوحة.

ومن الحوش، مضينا إلى القرية التي كانت تنتظر الفرح

.*******************************

الفصل الثاني والثلاثون: الحنة والصيوان

حين وصلنا إلى الدوحة، كانت القرية قد دخلت فعلياً في زمن العرس.

هناك فرق بين القرية في أيامها العادية والقرية حين تكون على موعد مع زواج. في الأيام العادية تمضي الحياة بإيقاعها المعروف: رجال إلى أعمالهم، نساء في البيوت، أطفال في الطرقات، بهائم تعود عند المغيب، وبيوت تستعد للمساء. أما في أيام العرس، فإن القرية كلها تتغير. كأن شيئاً من الضوء ينتشر في الوجوه قبل الأماكن.

كانت الحنة قد اقتربت، وكانت تفاصيلها تتحرك في كل اتجاه. رائحة الحناء وحدها قادرة على أن تعلن الفرح قبل أن يبدأ الغناء. الحناء في العرس

السوداني ليست مجرد زينة، بل طقس اجتماعي عميق، يربط الجسد بالذاكرة، والعريس بأهله، والبيت بفرحه.

في تلك الأيام، كان بيت عبدالواحد لا يهدأ.

الداخل خارج، والخارج داخل.

نساء يجهزن، رجال يرتبون، شباب يحملون، وأطفال يراقبون كل حركة كأنهم يحفظون درساً في الفرح سيحتاجونه حين يكبرون.

أما الصيوان، فكان عالماً قائماً بذاته.

الصيوان في القرية ليس خيمة فقط، بل منصة اجتماعية. فيه يجلس الكبار، ويستقبل أهل العريس الضيوف، وتدار أحاديث النسب والذكريات، وتُقدّم القهوة والشاي، وتُسمع عبارات الترحيب التي يعرفها السودانيون جيداً: "أهلاً وسهلاً." "نورتونا." "الدار داركم." "تعبتوا في الطريق." "الله يبارك فيكم".

كانت هذه العبارات تتكرر كثيراً، لكنها لا تفقد معناها. لأن السوداني حين يقول "الدار داركم" في مناسبة كهذه، فهو لا يقولها كجملة محفوظة، بل يفتح بها قلبه قبل بيته.

حضر الزملاء من جامعة الخرطوم، وكان حضورهم يربط العرس بأيام الدراسة. رأيت في وجوههم جامعة الخرطوم وهي تدخل الدوحة. كأن فناء الجامعة،

ومسجد الجامعة، وغرفة 17، وقهوة عم عبدالله، وروضة الاقتصاد، كلها جاءت معنا إلى العرس.

وكان عبدالواحد في قلب المشهد.

العريس، الصديق، الإمام، رجل الهدوء.

كان يتحرك بين الناس بوقاره المعروف. لم يكن من العرسان الذين يضيعون في صخب المناسبة، بل كان حاضراً كما عرفناه دائماً: هادئاً، مؤدباً، قريباً من الناس، وملتفاً بمحبة أهله وأصحابه.

كنت أنظر إليه وأتذكر بداياتنا في الجامعة.

كيف انتقلنا من لقاءات الفناء والمسجد إلى هذا الصيوان؟

كيف كبرت الصداقة حتى صرنا شهوداً على فرحه؟

وكيف صارت الدوحة مألوفة كأننا عرفناها منذ زمن؟

في تلك اللحظات، شعرت أن الذاكرة تكتب نفسها دون أن تستأذنني.

****

الفصل الثالث والثلاثون: بيت بخيتة بت أمدولا

في الأعراس السودانية، لا يحمل بيت العريس المناسبة وحده.

القرية كلها تشارك. البيوت تفتح أبوابها، والأسر تتقاسم الضيوف، وكل بيت يعتبر أن له نصيباً في إكرام القادم من بعيد.

في زواج عبدالواحد، تم توزيع الضيوف بين البيوت. بعضهم نزل في بيت عمتنا بخيتة بت أمدولا، والبعض الآخر توزعوا على منازل الحبان. وهذا التوزيع ليس مجرد حل عملي لمشكلة السكن، بل هو طقس من طقوس المشاركة. كأن القرية تقول لأهل العريس: "فرحكم فرحنا، وضيوفكم ضيوفنا".

بيت بخيتة بت أمدولا كان واحداً من تلك البيوت التي تشعر فيها أن الضيافة ليست عملاً مؤقتاً، بل طبيعة. في القرى، بعض البيوت معروفة بأنها بيوت كرم. إن نزلت فيها، لا تشعر أنك ضيف ثقيل، بل تشعر أن المكان كان ينتظرك.

كان الضيوف يدخلون ويخرجون، والنساء يسألن عن راحتهم، والرجال يطمئنون على نومهم وطعامهم. لا أحد يترك الضيف يسأل كثيراً. قبل أن يحتاج، يجد من سبقه بالسؤال.

هذا المعنى كان من أجمل ما في تلك المناسبة.

أن ترى القرية كلها تتحول إلى بيت واحد.

ليس هناك "ضيوف بيت فلان" و"ضيوف بيت علان". كلهم ضيوف الدوحة. وكل من جاء من جامعة الخرطوم أو من مكان بعيد، صار في حماية القرية وكرمها.

كنت أراقب ذلك وأتذكر عجان.

في عجان أيضاً، حين جاء عبدالواحد ورفاقه، تحركت الدار كلها. أمي أصرت على حليب الأبقار، وموسم القمح أعطى جواله لمحمد كبوس. وهنا في الدوحة، أرى المعنى نفسه يتكرر بصورة أخرى. كأن القرى السودانية تتبادل لغة واحدة لا تحتاج إلى ترجمة: لغة الكرم.

بيت بخيتة بت أمدولا لم يكن تفصيلاً جانبياً. كان شاهداً على أن العرس السوداني أكبر من فردين يتزوجان. هو شبكة كاملة من العلاقات والواجبات والمحبة. والضيف في هذه الشبكة لا يسقط من الذاكرة. له فراشه، له طعامه، له سؤاله، وله مقامه.

في تلك الليالي، كانت الدوحة كريمة حتى آخر حدود الكرم.

****

الفصل الرابع والثلاثون: فرقة الزاهدين

وقت العصر، جاءت لحظة لها وقع خاص.

صدحت فرقة الزاهدين بالأناشيد.

العصر في القرى ساعة مختلفة. الشمس لا تزال في السماء، لكنها بدأت تميل. الهواء يهدأ قليلاً، والظلال تطول، والناس يكونون بين تعب النهار وانتظار المساء. وفي هذه الساعة، حين يخرج صوت الإنشاد، يكون له أثر عميق.

لم تكن أناشيد فرقة الزاهدين مجرد فاصل في برنامج العرس. كانت حالة روحية داخل الفرح. فالزواج في السودان ليس غناءً وطعاماً فقط، بل دعاء وبركة وذكر. والإنشاد الديني يعطي المناسبة معنى آخر، كأن الفرح يرفع يديه إلى الله قبل أن يرفع صوته بالغناء.

كانت الأصوات تمضي في الهواء، والناس ينصتون أو يتحركون حول المكان وهم محاطون بذلك الجو. رأيت في ذلك المشهد شيئاً يشبه شخصية عبدالواحد نفسه. عرس فيه ذكر، وفرح فيه وقار، وبهجة لا تنسى أصلها الروحي.

كنت أتأمل التوازن الجميل.

في الصباح حركة الضيافة.

في النهار تجهيز الطعام.

وقت العصر إنشاد الزاهدين.

وفي الليل غناء السيرة والعرضة.

هكذا كانت الحياة السودانية تعرف كيف تجمع بين الروح والجسد، بين الذكر والطرب، بين المسجد والصيوان.

عبدالواحد، الرجل القريب من القرآن، كان يستحق عرساً يحمل هذا المعنى. ليس عرساً خالياً من الفرح، ولا فرحاً خالياً من البركة. وفرقة الزاهدين أعطت تلك اللحظة لوناً من السكينة.

كانت الأناشيد تنتشر بين البيوت كأنها دعاء جماعي.

ولعل كثيرين ممن كانوا مشغولين في التجهيز، توقفوا قليلاً في داخلهم، ولو لم يتوقفوا بأجسادهم. فالصوت النقي يصل إلى القلب حتى لو كان الإنسان ممسكاً بإناء أو حاملاً كرسياً أو منشغلاً بالقهوة.

في تلك الساعة، شعرت أن العرس اكتمل روحياً قبل أن يكتمل احتفالياً.

ثم جاء وقت السيرة إلى الجميلية.

****

الفصل الخامس والثلاثون: السيرة إلى الجميلية

بعد إنشاد فرقة الزاهدين، تحركنا بالسيرة إلى قرية الجميلية القريبة من الدوحة، حيث أسرة المرحوم سليمان جودة شلعي، صهر الشيخ عبدالواحد.

والسيرة في العرس السوداني ليست انتقالاً من مكان إلى مكان فحسب. إنها موكب فرح. تتحرك فيه الجماعة وهي تغني وتضحك وتمشي بخطوات لا تشبه المشي العادي. في السيرة، الناس لا يقطعون الطريق فقط، بل يعلنون الفرح للطرقات والبيوت والأشجار.

كنا نمضي نحو الجميلية، والقلوب مفتوحة. الرجال والشباب يتحركون، والأصوات ترتفع، وكل واحد يحمل في داخله شعوراً بأنه جزء من هذا الحدث. لم يكن الأمر يخص العريس وحده. كان كل من في السيرة يشعر أن له سهماً في الفرح.

الطريق بين الدوحة والجميلية لم يكن طويلاً في المسافة، لكنه كان واسعاً في المعنى. كنا نذهب لإحضار العروس، لكننا في الحقيقة كنا نربط بيتاً ببيت، وقرية بقرية، ونسباً بنسب، وفرحاً بفرح.

حين وصلنا إلى الجميلية، كان استقبال أهل العروس حاضراً بروح القرى. هناك أيضاً وجوه طيبة، ونساء يراقبن المشهد، وفتيات ينتظرن لحظة المزاح والمطالبة، ورجال يعرفون أن السيرة جاءت لتأخذ العروس وتعيدها إلى بيت الفرح.

وفي مثل هذه اللحظات، تظهر العادات السودانية الجميلة. ليست العادات هنا مجرد رسوم جامدة، بل مسرح اجتماعي لطيف، يختبر ذكاء الناس وخفتهم وقدرتهم على حفظ الفرح دون أن يخرج عن أدبه.

وهناك، عند أهل العروس، ظهرت عادة المطالبة برسوم الحنة والرحط.

وقفت بعض الفتيات يطالبن العريس ومن معه بما يعتبرنه حقاً رمزياً للتجهيزات. وكان الأمر يحتاج إلى من يتحدث، يساوم، يلاطف، ويخرج من الموقف بأقل تكلفة وأكثر ضحك.

ومن هنا بدأت حكاية المفاوضات.

****

الفصل السادس والثلاثون: مفاوضات الرحط والحنة

حين وقفت الفتيات يطالبن برسوم الحنة والرحط، نظر الناس إليّ كأنهم يقولون: "أنت لها".

ومن حنكتي في التفاوض، أوكل إليّ الأمر.

لم تكن المفاوضة معركة، ولم يكن المقصود أن ينتصر طرف على طرف. في مثل هذه العادات، الهدف الحقيقي هو إكمال المشهد بضحك ورضا. الفتيات يرفعن المطالب، وأصحاب العريس يحاولون تخفيضها، والكل يعرف أن الأمر في النهاية رمزي، لكنه لا يخلو من جدية لطيفة.

تقدمت وأنا أبتسم.

قلت لهن كلاماً فيه مزاح واحترام.

إن العريس رجل كريم، وإن أهل الدوحة أهل واجب، وإن المناسبة كبيرة، وإن الفرح لا يُقاس بالمال. لكن أيضاً الطريق طويل، والضيوف كثيرون، والميزانية لا تحتمل كل هذه المطالب العالية.

ضحكت بعضهن، واعترضت أخريات.

قالت إحداهن بما معناه: "لا لا... الحنة والرحط ما لعب. لازم تدفعوا".

قلت: "ندفع، لكن بالمعقول. نحن جايين نفرح، ما جايين نفتح بنك".

تعالت الضحكات.

وكانت تلك الضحكات جزءاً من نجاح التفاوض. حين يضحك الطرف الآخر، تبدأ المسافة في القصر.

بدأ المبلغ المطلوب عالياً، كما تقتضي العادة. وأنا أخفض، وألاطف، وأذكر أن العريس شيخ ورجل قرآن، وأن البركة في القليل إذا خرج بمحبة. ولم يكن الكلام كله جدياً، بل كان خليطاً من المزاح والذكاء الاجتماعي.

قلت لهن: "أها خلونا نطلع من هنا بالدعوات، ما بالديون".

ضحكن مرة أخرى.

ثم بدأت المطالب تنخفض شيئاً فشيئاً. وكلما اقتربنا من مبلغ معقول، زاد المرح. في النهاية، اكتفين بمبلغ زهيد، يرضي العادة ولا يرهق العريس.

وهكذا نجحت المفاوضة.

قد يبدو هذا المشهد صغيراً، لكنه عندي من ألطف مشاهد الرواية. لأنه يحمل روح المجتمع السوداني في المناسبات. حتى المال يصبح مادة للضحك، وحتى التفاوض يصبح فناً، وحتى الفتيات وهن يطالبن بحقوق الحنة والرحط، كن يشاركن في صناعة الفرح لا في تعطيله.

بعد أن انتهى الأمر، تحركنا بالعريس والعروس نحو الدوحة.

وكان في داخلي شعور جميل: لقد شاركت في العرس لا كضيف، بل كواحد من أهل المناسبة. ومن يُوكل إليه التفاوض في مثل هذا الموقف، فقد صار من الداخل، لا من الهامش.

****

الفصل السابع والثلاثون: عروسان في ليلة واحدة

حين عدنا إلى الدوحة، كان الفرح ينتظرنا بصورة أوسع مما تركناه.

فالمناسبة لم تكن فرح عبدالواحد وحده. شقيقه الفنان فتح الرحمن كان قد أتى بعروسته من قرية ود النور القريبة من مدني. وهكذا اجتمع في البيت عريسان وفرحان، واجتمعت القلوب على مناسبة مضاعفة.

كان المشهد جميلاً إلى حد يصعب وصفه.

عبدالواحد، الرجل الهادئ الورع، صاحب السكينة، عريساً.

وفتح الرحمن، الفنان صاحب الروح الطروبة، عريساً أيضاً.

كأن البيت أراد أن يجمع في ليلة واحدة بين الوقار والطرب، بين محراب الروح ونغمة الفرح.

في البيوت السودانية، هذا الجمع ليس غريباً. تجد في الأسرة الواحدة الشيخ والفنان، الضابط والمزارع، المعلم والتاجر، المرح والجدي، وكلهم يشكلون لوحة واحدة. لا يلغي أحدهم الآخر، بل يكمله.

كان أهل الدوحة يتحركون بين الفرحين كأنهم نهر واسع. لا يشعرون أن المناسبة ثقيلة، بل كأن الفرح حين تضاعف زادهم قوة. النساء أكثر انشغالاً، الرجال أكثر حركة، الشباب أكثر حماساً، والأطفال أكثر دهشة.

كنت أنظر إلى عبدالواحد وفتح الرحمن وأقول في نفسي: "يا لها من ليلة"!

ليست كل الأسر تُرزق بأن تجمع فرحين في ذاكرة واحدة. والجميل أن الفرحين لم يتزاحما، بل تعانقا. كأن فرح عبدالواحد يمنح فرح فتح الرحمن وقاراً، وكأن فرح فتح الرحمن يمنح فرح عبدالواحد طرباً.

وفي المساء، كان الغناء ينتظر أن يفتح أبوابه.

****

الفصل الثامن والثلاثون: التوم وأغاني السيرة

في المساء، صدح الفنان التوم بأغاني السيرة والعرضة.

كان الليل قد بدأ يستقر على الدوحة، لكن القرية لم تكن مستعدة للنوم. في الأعراس، الليل ليس نهاية اليوم، بل بدايته الحقيقية. حين يكتمل الظلام، تشتعل الأصوات، وتظهر الزغاريد، وتبدأ الأقدام في طرق الأرض.

صوت التوم ملأ المكان.

كانت أغاني السيرة تحمل الناس إلى حالة جماعية من الفرح. لا تسمع الأغنية وحدك، بل تسمعها مع القرية كلها. الكبار، الشباب، النساء، الأطفال، الضيوف، أهل العريس، أهل العروس، كلهم داخل دائرة الصوت.

العرضة بدأت تأخذ شكلها. رجال يتقدمون، يتراجعون، يلوحون، يضربون الأرض بأقدامهم، وملامحهم تقول إن الفرح ليس ضعفاً، بل قوة. العرضة في السودان تحمل رجولة خاصة، لكنها رجولة لا تقسو على الفرح، بل تحميه.

كنت وسط ذلك المشهد أشعر أنني في قلب السودان.

ليس السودان المرسوم في الخرائط، بل السودان الحي: غناء، عرضة، ضيافة، نساء يزغردن، رجال يرحبون، شباب يضحكون، وأطفال يركضون قرب الصيوان.

كان التوم يغني، والناس يستجيبون.

والأغنية حين تجد جمهوراً يعرف كيف يفرح، تصبح أكبر من صوت الفنان. تصبح ملكاً للجميع.

في تلك اللحظة، شعرت أن كل المحطات السابقة كانت تقود إلى هذا المساء: جامعة الخرطوم، المسجد، غرفة 17، عجان، حليب الأبقار، جوال القمح، الطريق، الترعة، الحوش، الحنة، الجميلية، التفاوض، ثم هذه الليلة التي جمعت كل شيء في دائرة واحدة من الفرح.

****

الفصل التاسع والثلاثون: المايك وتهنئة العرسان

في تلك الليلة، أمسكت أنا المايك وقمت بتهنئة العرسان.

كانت لحظة خاصة.

فالمايك في العرس ليس مجرد جهاز للصوت، بل منبر صغير. ومن يمسكه أمام الناس، يحمل مسؤولية الكلمة. والكلمة في مثل هذه المناسبات يجب أن تكون خفيفة على السمع، لكنها عميقة في المعنى. يجب أن تفرح ولا تطيل، أن تكرم ولا تبالغ، أن تقول ما في القلب دون أن تفسد انسياب الليلة.

وقفت، ونظرت إلى الوجوه أمامي.

رأيت عبدالواحد، الصديق والزميل والأخ.

رأيت فتح الرحمن، الفنان والعريس.

رأيت أهل الدوحة.

رأيت زملاء جامعة الخرطوم.

رأيت وجوهاً عرفتها في الطريق، وأخرى عرفتها في العرس، لكنها بدت كلها قريبة.

بدأت بالتهنئة.

باركت للعريسين، ودعوت لهما، وذكرت شيئاً من فضل الأهل وكرم الدوحة. لم أكن أقرأ خطاباً مكتوباً، بل كنت أتكلم من ذاكرة ممتلئة. كانت الكلمات تأتي ومعها صور كثيرة: عبدالواحد في مسجد الجامعة، عبدالواحد في غرفة 17، عبدالواحد في عجان، أمي وهي تحلف على الحليب، محمد كبوس وجوال القمح، الطريق إلى الدوحة، حادث الترعة، والحوش التي استقبلتنا بعبق رجالها.

قلت كلاماً من القلب، لأن المقام لا يحتمل التصنع.

كان الناس ينصتون، وبعضهم يبتسم، وبعضهم يواصل حركته، لكنني كنت أشعر أن الكلمة وصلت.

في لحظة ما، أدركت أنني لا أهنئ عريساً فقط، بل أحتفل بصداقة. أحتفل بالطريق الذي قطعناه من الفناء الجامعي إلى صيوان الدوحة. أحتفل بزمن كان بسيطاً لكنه عميق. أحتفل بالرجال الذين صاروا أهلاً.

حين انتهيت، عاد الغناء يأخذ مكانه.

لكن لحظة المايك بقيت في داخلي. لأنها كانت شهادتي العلنية على محبتي لعبدالواحد وأهله، وعلى امتناني لتلك الأيام.

****

الفصل الأربعون: بكري... الفرح يمشي على قدمين

لا يمكن أن تكتمل حكاية زواج عبدالواحد دون أن يأخذ بكري مكانه في قلب الرواية.

بكري لم يكن شخصاً عادياً في تلك الليلة.

كان حالة من الفرح تمشي بين الناس.

رجل شفيف، عفيف، مرح، شبابي الروح، يحب الطرب، ويعرف كيف يدخل إلى المناسبة من بابها الواسع.

هناك أناس يحضرون الأفراح كضيوف، يجلسون، يأكلون، يباركون، ثم يمضون. وهناك أناس حين يحضرون، يصبحون جزءاً من روح المناسبة. بكري كان من

الصنف الثاني. حضوره لم يكن صامتاً، ولا ثقيلاً، ولا مفتعلاً. كان حضوراً طبيعياً، كما لو أن الفرح نفسه اختار جسده ليتحرك به.

كنت أراه يرقص بحركات كلها طيلة.

ليس رقصاً متكلفاً ولا استعراضاً، بل رقص رجل امتلأ قلبه بالبهجة. كان يفرح لعبدالواحد، ولفتح الرحمن، وللأسرة، وللقرية، وربما يفرح لأن الفرح حين يأتي بعد تعب الحياة يستحق أن يُعاش كاملاً.

في حركات بكري كان هناك شيء من الطفولة النبيلة. ذلك النوع من الطفولة الذي يبقى في الإنسان حتى يكبر، فيجعله قادراً على الضحك من القلب. لم يكن يخجل من فرحه. لم يكن يحسب خطواته كثيراً. كان يترك نفسه للإيقاع، ولصوت التوم، وللعرضة، ولزغاريد النساء.

والناس حوله كانوا يضحكون ويأنسون بحركته.

كلما تقدم، اتسعت الدائرة.

وكلما رقص، زاد الليل حياة.

قلت في نفسي يومها إن المجتمع يحتاج إلى أمثال بكري.

فالبيوت لا تقوم على الجادين وحدهم. والقرى لا تعيش بالوقار فقط. لا بد من رجل يفتح نافذة للضحك، ويخفف ثقل التعب، ويجعل المناسبة أكثر دفئاً. بكري كان هذه النافذة.

كان في تلك الليلة كأنه يقول للجميع دون كلام:

"افرحوا... هذه ليلة لا تتكرر".

ولأن الفرح الصادق معدٍ، فقد انتقل منه إلى من حوله. حتى من كان جالساً في هدوء، كانت عينه تبتسم وهو يراه. وحتى الكبار، وهم يحافظون على وقارهم، كانوا يشعرون أن هذا الرجل يضيف شيئاً عزيزاً إلى الليلة.

بكري، في ذاكرة تلك المناسبة، لم يكن مجرد زوج شقيقة عبدالواحد.

كان عنواناً للبهجة.

كان وجهاً من وجوه الدوحة الجميلة.

كان دليلاً على أن الفرح إذا خرج من قلب صادق، صار جزءاً من التاريخ الشخصي لكل من شاهده.

****

الفصل الحادي والأربعون: عكاز عمنا أحمد جبارة

وسط غناء التوم، والعرضة، وحركة الشباب، كان هناك مشهد لا يغيب من ذاكرتي أبداً: عمنا أحمد جبارة بعكازته.

كان يلوح بعكازه فرحاً وطرباً.

ولم يكن العكاز في تلك اللحظة علامة كبر أو تعب، بل صار راية. راية فرح. راية أب يرى أبناءه وأهله في يوم من أيام العمر الكبيرة.

هناك مشاهد لا تحتاج إلى شرح كثير لأنها تقول كل شيء وحدها.

رجل كبير، بعكاز، وسط عرس، يلوح به في الهواء، والفرح يملأ وجهه.

هذا المشهد عندي يساوي صفحات من الكلام.

في القرى السودانية، وجود الكبار في الفرح ليس حضوراً شكلياً. هم بركة المكان. حين يجلسون، يشعر الناس أن المناسبة لها سند. وحين يشاركون، ولو بإشارة يد أو تلويحة عكاز، فإنهم يمنحون الفرح شرعية عائلية وروحية.

كان عمنا أحمد جبارة في تلك الليلة كأنه يجمع بين جيلين.

جيل الآباء الذين تعبوا وربوا وحفظوا البيوت.

وجيل الأبناء الذين يفرحون ويتزوجون ويمضون إلى مستقبلهم.

العكاز في يده كان يحكي عن العمر، لكن تلويحته كانت تحكي عن قلب شاب.

وهذا من جمال بعض الكبار؛ أن أجسادهم تكبر، لكن قلوبهم تبقى قادرة على الطرب.

كنت أنظر إليه وأفكر:

كم تعب هذا الرجل حتى يصل إلى هذه الليلة؟

كم حمل من هموم الأسرة؟

كم رأى من أيام؟

وها هو الآن يلوح بعكازه في فرح عبدالواحد وفتح الرحمن، كأن الحياة، رغم كل تعبها، تكافئه بهذه اللحظة.

ذلك العكاز لم يكن خشبة.

كان تاريخاً، كان أبوة، كان فرحاً.

كان جزءاً من صورة الدوحة في ذاكرتي.

****

الفصل الثاني والأربعون: نساء الدوحة وبنات الحلة

لا يكتمل عرس سوداني دون النساء.

فالنساء هن قلب المناسبة، وروحها الخفية، وصوتها العالي حين تنطلق الزغاريد.

في زواج عبدالواحد، كانت نساء الدوحة وبنات الحلة حاضرات بكل الفرح.
كن يملأن المكان حياة، يراقبن التفاصيل، يشاركن بالغناء والزغاريد، يضحكن، يباركن، ويتحركن بين البيوت والصيوان كأنهن خيوط تربط الفرح كله ببعضه.

النساء في الأعراس السودانية لا يقمن بدور جانبي.

هن من يجهزن كثيراً من التفاصيل.

هن من يحفظن إيقاع المناسبة.

هن من يعرفن متى ترتفع الزغرودة، ومتى تُقال العبارة المناسبة، ومتى يُدفع العريس إلى قلب المشهد، ومتى تُدار تفاصيل الضيافة التي لا يراها كثير من الرجال.

كنت أرى الفرح في عيونهن.

الزواج بالنسبة لهن ليس مجرد حدث اجتماعي، بل لحظة تهم البيت والقرية والأنساب. كل واحدة تشعر أن لها سهماً في المناسبة. حتى من ليست قريبة جداً، فإنها تصبح قريبة بالفرح.

وبنات الحلة كنّ كعادتهن في مثل هذه المناسبات، يمزجن بين الحياء والمرح. يضحكن، يتهامسن، يشاركن في العادات، وربما كنّ من بين من وقفن في الجميلية يطالبن برسوم الحنة والرحط. وهذه الروح النسائية المرحة تضيف للعرس لونه الخاص.

كانت الزغاريد تخترق الليل مثل سهام ضوء.

كل زغرودة كانت تعلن أن الفرح بلغ ذروته.

والزغرودة السودانية ليست صوتاً فقط؛ إنها إعلان جماعي بأن القلب امتلأ.

في تلك الليلة، كانت نساء الدوحة يكتبن فصل الفرح بأصواتهن، كما كان الرجال يكتبونه بالعرضة، وكما كان بكري يكتبه بالرقص، وكما كان عمنا أحمد جبارة يكتبه بعكازه.

****

الفصل الثالث والأربعون: نهاية الحفل فجراً

امتد الفرح حتى الفجر.

والليل حين يمتد في الأعراس السودانية لا يشعر الناس بطوله. الساعة تمضي، لكن أحداً لا يريد أن ينظر إليها. كلما انتهت أغنية، بدأت أخرى. كلما جلس بعض الناس، نهض آخرون. وكلما خف صوت، جاء صوت جديد يحمل المناسبة.

كان التعب قد بدأ يظهر على الوجوه، لكنه تعب جميل.

تعب الفرح.

ذلك التعب الذي لا يشكو منه الإنسان لأنه يشعر أن كل دقيقة منه تستحق.

مع اقتراب الفجر، بدأت الأصوات تهدأ شيئاً فشيئاً. لا ينطفئ العرس فجأة، بل يهدأ كما تهدأ النار بعد أن تمنح دفئها. تبقى جمرات صغيرة من الحديث والضحك والوداع، ثم يبدأ الناس في الانصراف.

كان بعض الضيوف يبحثون عن أماكنهم للراحة.

بعض الشباب لا يزالون يتحدثون عن مواقف الليلة.

النساء يراجعن ما تبقى من تفاصيل.

والكبار ينسحبون بهدوء، بعد أن أدوا حق الفرح.

كنت أشعر أنني لا أريد لهذه الليلة أن تنتهي.

لكن كل فرح، مهما طال، لا بد أن يترك مكانه للصباح.

ومع الفجر، بدت الدوحة مختلفة.

القرية التي كانت تضج بالغناء قبل قليل، بدأت تستعيد هدوءها. لكن الهدوء لم يكن عادياً؛ كان هدوءاً بعد امتلاء. كأن القرية ابتسمت طوال الليل، ثم أغمضت عينيها قليلاً لترتاح.

في داخلي، كنت أعرف أن هذه الليلة ستبقى.

ليست كل الليالي تصلح للذاكرة، لكن تلك الليلة وُلدت لتبقى.

****

الفصل الرابع والأربعون: ود حسين الحلاوين

عند الصباح، وبعد ليلة طويلة من الغناء والعرضة والفرح، توجهنا بصحبة زملائي إلى قرية ود حسين الحلاوين، حيث زميلنا حسن أزهري الطيب.

كان معنا الأخ النيل الفاضل محمود، ومدثر النعيم، والطيب الشكري.

كنا متعبين، لكن تعب السهر في الأفراح له مذاق خاص. تشعر أن الجسد يريد النوم، لكن الروح لا تزال مستيقظة، تريد أن تكمل ما بدأته الليلة.

الطريق إلى ود حسين كان امتداداً للفرح.

لم نكن نغادر الدوحة هاربين من التعب، بل كنا ننتقل من كرم إلى كرم، ومن أهل إلى أهل، ومن قرية فتحت قلبها إلى قرية أخرى تعرف المعنى نفسه.

حين وصلنا ود حسين، وجدنا استقبالاً كريماً يليق بالحلاوين. احتفلوا بنا، ونحروا الذبائح بكرم فياض. ولم يكن ذلك غريباً على أهل القرى. الضيف عندهم لا يقاس بتعب الناس، بل بمقامه. حتى لو جاءهم الناس بعد ليلة عرس طويلة، فإن الواجب ينهض قبل الراحة.

كان حسن أزهري الطيب وأهله في مقام الكرم.

استقبلونا، أكرمونا، وفتحوا لنا قلوبهم قبل بيوتهم.

والذبيحة في مثل هذه المواقف ليست طعاماً فقط، بل إعلان محبة واحترام.

جلست هناك وأنا أشعر أن السودان كله سلسلة من البيوت المفتوحة.

عجان أكرمت عبدالواحد ورفاقه بالحليب والقمح.

الدوحة أكرمتنا بالعرس والصيوان والضيافة.

ود حسين أكرمتنا بالذبيح والترحاب.

وكأن الطريق كله كان درساً في الكرم.

التقينا في ود حسين بناس طيبين.

وجوههم مألوفة حتى لو رأيتها للمرة الأولى. تلك الوجوه التي تعرفها القرى: صفاء، بساطة، كرم، وسؤال صادق عن الحال.

في تلك اللحظة، شعرت أن الطريق إلى الدوحة لم ينتهِ عند الدوحة، بل امتد إلى ود حسين. فالذاكرة لا تعرف الحدود الإدارية. كل مكان منحك محبة صار جزءاً من الحكاية.

****

الفصل الخامس والأربعون: النيل الفاضل ومدثر والطيب الشكري

كان رفاق الطريق إلى ود حسين جزءاً من جمال الرحلة.

الأخ النيل الفاضل محمود كان معنا، وهو من الرجال الذين تربطنا بهم معرفة ممتدة. من قرية مريحلة، نعرفه ونعرف والده وإخوانه. وهذه ليست معرفة سطحية، بل معرفة سودانية أصيلة، تدخل فيها الأسرة والقرية والاسم.

وجود النيل الفاضل في الرحلة كان امتداداً لروح الجامعة والقرى. رجل تعرف جذره، فيصبح حضوره أكثر ألفة. في السودان، حين تقول "نعرف أبوه وإخوانه"، فأنت لا تقدم معلومة فقط، بل تعلن أن العلاقة لها عمق وثقة.

وكان معنا مدثر النعيم، والطيب الشكري.

لكل واحد من هؤلاء موقعه في الذاكرة. قد لا تتسع الرواية لكل تفاصيلهم، لكن أسماءهم ضرورية لأنهم كانوا شهوداً على الطريق. والطرق لا تُحفظ بالأماكن فقط، بل بالذين مشوا معك فيها.

كنا جميعاً نحمل أثر العرس.

نتحدث عن الليلة، عن بكري، عن التوم، عن العكاز، عن مفاوضات الرحط والحنة، عن حادث الأتوز، وعن كرم الدوحة. كانت الذاكرة لا تزال ساخنة، كأن الأحداث لم تتحول بعد إلى ماضٍ.

وجود الرفاق يجعل السفر أخف.

الطريق الذي تقطعه وحدك طويل، أما الطريق مع أصحابك فيتحول إلى مجلس. الضحك يقصر المسافة، والتعليق يخفف التعب، والذكريات تبدأ في التكون قبل أن ينتهي الحدث.

هؤلاء الرفاق كانوا جزءاً من الطريق إلى الدوحة، ومن طريق العودة أيضاً. وربما لذلك أحرص على ذكرهم. لأن الوفاء لا يختار الأسماء الكبيرة وحدها، بل يحفظ كل من كان حاضراً في لحظة لها معنى.

****

الفصل السادس والأربعون: العودة إلى الخرطوم

بعد ود حسين، بدأ طريق العودة إلى الخرطوم.

والعودة بعد الفرح لها طعم مختلف.

في الذهاب، تكون ممتلئاً بالتوقع. تتخيل ما سيحدث، من ستقابل، كيف سيكون العرس، كيف ستكون القرية. أما في العودة، فأنت تحمل كل ذلك وقد صار حقيقة. تحمل الوجوه والأصوات والمواقف، وتحاول أن ترتبها في داخلك.

كنا نعود، لكن الدوحة كانت معنا.

لم نتركها خلفنا تماماً. تركنا المكان، لكننا أخذنا منه ما لا يمكن أن يُحمل في الحقائب: صوت التوم، رقص بكري، عكاز عمنا أحمد جبارة، زغاريد النساء، إنشاد الزاهدين، مفاوضات الجميلية، كرم بيت بخيتة بت أمدولا، ووجه عبدالواحد العريس.

كانت السيارة تمضي، والطرق تتراجع خلفنا.

ربما سكت بعضنا من التعب، وربما نام من نام، وربما ظل آخرون يتحدثون. لكن كل واحد منا كان يحمل نسخة خاصة من الرحلة.

كنت أطل من النافذة، وأفكر في البداية.

كيف بدأت العلاقة بسلام عابر في جامعة الخرطوم؟

كيف جمعتنا الصلاة في مسجد الجامعة؟

كيف جمعتنا قهوة عم عبدالله وروضة الاقتصاد وأم جمعة؟

كيف صارت غرفة 17 بيتاً صغيراً للصداقة؟

كيف جاء عبدالواحد إلى عجان؟

كيف حلفت أمي على حليب الأبقار؟

كيف صار جوال القمح لمحمد كبوس رمزاً للكرم؟

وكيف قاد ذلك كله إلى الدوحة؟

أحياناً لا نفهم ترتيب الأحداث إلا بعد أن تمضي.

نظن أن الأشياء منفصلة، ثم نكتشف أنها خيط واحد.

جامعة الخرطوم لم تكن منفصلة عن عجان.

وعجان لم تكن منفصلة عن الدوحة.

والدوحة لم تكن منفصلة عن ود حسين.

كلها كانت فصولاً في كتاب واحد.

حين اقتربنا من الخرطوم، شعرت أن الرحلة انتهت في ظاهرها فقط.

أما في داخلي، فقد بدأت للتو.

لأن بعض الرحلات لا تنتهي بالوصول إلى البيت.

تنتهي حين تُكتب.

وربما لا تنتهي حتى بعد الكتابة.

****

الخاتمة:

الطريق الذي لا ينتهي ، لم يكن الطريق إلى الدوحة طريقاً عادياً، كان طريقاً بدأ في فناء جامعة الخرطوم، حين كان طالب من كلية الآداب يلتقي طالباً من كلية الاقتصاد. بدأ في مسجد الجامعة، ونحن نتلو ما تيسر من القرآن. بدأ عند قهوة عم عبدالله، وعند روضة الاقتصاد، وعند أم جمعة بعصيدتها وملاح النعيمية. بدأ في غرفة 17 بداخلية الرهد، حيث عرفنا بعضنا في ضيق المكان وسعة الرفقة.

ثم امتد الطريق إلى عجان، حيث جاء عبدالواحد ورفاقه في زواج ابن عمي، وحيث ارتفع صوت الربابة والعرضة والأندوب، وحيث حلفت أمي بيمين الله ألا يغادر الضيوف قبل موعد حليب الأبقار، وحيث حمل محمد كبوس جوال قمح من خير الموسم.

ثم امتد الطريق إلى الدوحة، إلى بيت أحمد جبارة والحاجة فردوس، إلى زروق، ومنى، وبكري، وفتح الرحمن، إلى زواج 2011، إلى الأتوز الحمراء وحادث الترعة، إلى الحوش وعبق والي الدين وشريف محمد جبارة وشمت محمد نور، إلى الحنة والصيوان، إلى بيت بخيتة بت أمدولا، إلى فرقة الزاهدين، إلى الجميلية، إلى مفاوضات الرحط والحنة، إلى التوم والعرضة والمايك، إلى بكري وهو يرقص طرباً، وإلى عمنا أحمد جبارة وهو يلوح بعكازه فرحاً.

ثم امتد الطريق إلى ود حسين الحلاوين، إلى حسن أزهري الطيب، والنيل الفاضل محمود، ومدثر النعيم، والطيب الشكري، وإلى الذبائح والكرم والناس الطيبين.

هذا الطريق لم يكن طريق سفر.

كان طريق صداقة.

طريق ذاكرة.

طريق سوداني كامل، فيه الجامعة والقرية، المسجد والقهوة، العصيدة والحليب، القمح والغناء، الورع والطرب، الإدارة والصحافة، العكاز والمايك، الضحك والدمعة.

وأما عبدالواحد أحمد جبارة، فهو في هذه الرواية أكثر من شخصية.

هو مفتاح الطريق.

من خلاله دخلت إلى الدوحة، ومن خلال الدوحة رأيت وجهاً آخر من وجوه السودان الطيب. عرفته زولاً تقياً وورعاً، ثم عرفته رجلاً من رجال الإدارة، وأحد أعمدة بنك أم درمان الوطني، وضليعاً في علم الإدارة العامة، وعضواً في اتحاد الصحفيين. لكن قبل ذلك وبعده، عرفته أخاً وصديقاً ورجلاً نبيلاً.

هذه الرواية أكتبها وفاءً.

وفاءً لعبدالواحد.

وفاءً لجامعة الخرطوم.

وفاءً للغرفة 17.

وفاءً لعجان والدوحة وود حسين.

وفاءً لأمي، وللحاجة فردوس، ولأهل القرى الذين علمونا أن الكرم ليس كلاماً، بل فعل.

بعض الطرق تنتهي حين يصل المسافر.

أما الطريق إلى الدوحة، فقد بدأ حين وصلنا.

ولا يزال مفتوحاً في الذاكرة.

****

رأي الكاتب:

أرى أن هذه الرواية ليست عملاً عن مناسبة اجتماعية فقط، بل هي وثيقة وجدانية عن جيل ومرحلة ومكان. إنها تحفظ جانباً من ذاكرة جامعة الخرطوم، وتربط تلك الذاكرة بالقرى السودانية التي ظلت تمد أبناءها بالكرم والأصالة والمعنى.

قوة هذه الرواية في صدق تفاصيلها.

فهي لا تقوم على أحداث متخيلة بعيدة، بل على مشاهد حية: مسجد الجامعة، عم عطية، محمد آدم وجلال، قهوة عم عبدالله، روضة الاقتصاد، أم جمعة، غرفة 17، عجان، حليب الأبقار، جوال القمح، الدوحة، الحاجة فردوس، بكري، فتح الرحمن، زروق، الأتوز الحمراء، الترعة، الحوش، الحنة، الجميلية، الرحط، التوم، العرضة، العكاز، وود حسين.

هذه التفاصيل هي روح العمل.

ولو حُذفت، لفقد النص سودانيته وحرارته.

كما أن شخصية عبدالواحد أحمد جبارة تمثل نموذجاً للرجل السوداني الذي يجمع بين الورع والعلم والإدارة والوفاء. فهو ليس شخصية عابرة في الذاكرة، بل محور إنساني يربط بين الجامعة والأسرة والقرية والعمل العام.

أردت من هذه الرواية أن أقول إن الصداقة الحقيقية لا تموت.

قد تفرقنا المسافات، وقد تتغير الحياة، وقد تمضي السنوات، لكن ما بُني على الصدق يبقى.

وأن القرى السودانية، رغم بساطتها، تملك ثروة إنسانية لا تُقدّر بثمن: الكرم، الحميمية، حفظ العهد، وتعظيم الضيف.

هذه الرواية تصلح أن تكون عملاً أدبياً توثيقياً، ويمكن تطويرها في طبعة نهائية بإضافة حوارات أكثر، وصور إن وجدت، وهوامش تعريفية بالأماكن والشخصيات، لتكون كتاباً متكاملاً في أدب الذاكرة السودانية.

الطريق إلى الدوحة

رواية وفاء وصداقة وذاكرة سودانية

بقلم: محمد بشير محمد مصطفى "ود القبائل"



الطريق إلى الدوحة

محمد بشير محمد مصطفى «ود القبائل» كاتب وصحفي سوداني، خريج جامعة الخرطوم، يكتب في الأدب والصحافة والتوثيق الاجتماعي. تهتم أعماله بالذاكرة السودانية، والقرية، والإنسان، وقيم الوفاء والكرم والصداقة.

في رواية الطريق إلى الدوحة يستعيد الكاتب رحلة وجدانية بدأت من جامعة الخرطوم وامتدت إلى قرى الجزيرة، موثقاً صداقة صادقة، وملامح من حياة سودانية عامرة بالحب والوفاء والحنين.